

حي بن يقظان

ابن طفيل



عيون النثر العربي القديم
حي بن يقظان
ابن طفيل



حي بن يقظان

ابن طفيل

B753.I5 H3 2014
ابن طفيل، محمد بن عبد الملك، ت. 1185
حي بن يقظان/ لابن طفيل؛ إعداد: أحمد خريس.- ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.
ص. ؛ سم.-(سلسلة عيون النثر العربي القديم)
تدمك: 978 – 9948 – 17 – 356 – 4
1. الفلسفة الإسلامية. 2. القصة العربية — الأندلس -- تاريخ ونقد. أ. خريس، أحمد، -1970 ب.العنوان. ج.السلسلة.

إعداد:
د. خليل الشيخ

خطوط:
الفنان التشكيلي الخطاط
محمد مندي





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

المقدمة

هذه قصة حَيّ بن يقظان لابن طفيل؛ وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الأندلسي، الفيلسوف والطبيب والقاضي المعروف. ولد في وادي آش بقرطبة، ودرس الحديث والفقه واللغة، وكان من تلاميذ الفيلسوف الشهير ابن باجة، تعلّم الطبَّ في غرناطة، واشتغل وزيراً وطبيباً لأبي يعقوب يوسف؛ حاكم الأندلس من سلالة الموحدين، وتوفي سنة (581هـ) في مراكش.

ذكر لسان الدين بن الخطيب أنه ألَّفَ كتاباً في الطب من مجلدين، وكان بينه وبين ابن رشد مراجعات ومباحث في (رسم الدواء)، جمعها الأخير في كتابه (الكليات)، وأن له أرجوزةً في الطب.

وتعد قصة (حي بن يقظان) التي عمد فيها إلى توظيف الخيال والرمز للتعبير عن فكره الفلسفيّ واحدةً من أهم القصص الفلسفية في التاريخ الفكري والإنساني. وقد قيل: إنها أفضل قصة فلسفية عرفتها العصور الوسطى.

تدور أحداث القصة حول طفلٍ اسمه حي بن يقظان، ولدِ لأمٍّ كانت تعيش في إحدى جزر الهند تحت خط الاستواء، من قريبٍ لها اسمه يقظان، تزوجته خفيةً عن شقيقها الملك الذي منعها من الزواج به، وعندما وضعته خشيت من انتقام شقيقها الملك، فجعلت الطفل في تابوت وألقته في البحر، فحملته الأمواج إلى ساحل جزيرة الواقواق، حيث عثرت عليه ظبية كانت تبحث عن طِلاها؛ أو صغيرها المفقود، فأرضعته وحضنته، وجعلته تحت رعايتها.

وعندما بلغ السابعة من عمره ماتت الظبية، وقد شكل موتها منعطفاً حاسماً في حياته، فراح يبحث عن حقيقة الحياة والموت عبر تشريحه جثة الظبية؛ ليبدأ بعد ذلك رحلته المعرفية بغية اكتشاف

أسرار الكون والحياة ونواميسها، حتى توصل عن طريق الحواس والتجربة والتأمل والتفكير إلى حقيقة الكثرة في الجسم والروح، وتشابه الكائنات في المادة، واختلافها في الصورة التي وجدت عليها، كما تبين له أن النفس منفصلةٌ عن الجسد، وتختلف عنه في المصير، وفي التَّوْقِ إلى واجب الوجود (خالقها)، الذي أيقن بوجوده وقدرته؛ ليقف أخيراً على سر السعادة المتحققة في دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود.

وبينما كان حي منغمساً في عبادة الله - عزّ وجلّ - اتفق له الالتقاء بأسال، الذي قَدِم إلى جزيرة الواقواق طالباً العزلة، وباحثاً عن باطن الشرع، وبعد أن أنِس كلٌّ واحدٍ منهما إلى الآخر، شرح حَيّ لأسال كيف حصلت له المعرفة عن طريق الحواس والتجربة والمجهود العقلي، واتفاق ما توصل إليه حول علّة الكون والنفس مع باطن الشرع، ثم طلب من أسال أن يذهب معه إلى جزيرته؛ علهما يفلحان معاً في هداية أهلها إلى الحقائق الكبرى، التي تتجاوز حدود الشريعة دون أن تتصادم معها؛ ظانًّا أن الناس كلَّهم ذوو فِطَرٍ فائقةٍ، وأذهانٍ ثاقبةٍ، ونفوسٍ عازمةٍ. وعلى الرغم من أنهم كانوا محبين للخير راغبين في الحقِّ، فإنهم نفروا منه، ونبوا عنه؛ لأنهم طلبوا الحق والخير من جهة أخرى غير جهته، فيئس من إصلاحهم، وانقطع رجاؤه من صلاحهم، وعاد بصحبة أسال إلى جزيرة الواقواق، وعبدا الله فيها حتى أتاهما اليقين.

إن اختيار ابن طفيل لاسم حي بن يقظان لم يكن محضَ صدفةٍ، فحيّ في سياق هذه القصة يرمز إلى العقل الفعَّال أو النفس المفكِّرة، وهو عقلٌ خالدٌ حيٌّ لا يتغير ولا يهرم، ويقظان: هو القيوم الذي لا ينام له جفنٌ، ويهدي الإنسان إلى الحقائق عن طريق المنطق، ويحذِّره من اتباع الحواس والغرائز فقط.

قصة حي بن يقظان

ذكر سلفنا الصالح - صلى الله عليه وسلم - أن جزيرةً من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء، وهي الجزيرة التي يتولَّدُ بها الإنسان من غير أمٍّ ولا أبٍ، وبها شجرٌ يثمرُ نساءً، وهي التي ذكر المسعودي أنها جزيرة الواقواق[1]؛ لأن تلك الجزيرة أعدلُ بقاع الأرض هواءً، وأتمها لشروق النور الأعلى عليها استعداداً.

إنّه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرةٌ عظيمةٌ متسعةُ الأكناف[2]، كثيرة الفوائد، عامرةٌ بالناس، يملكُها رجلٌ منهم شديد الأنفة والغيرة، وكانت له أختٌ ذات جمالٍ وحسنٍ باهرٍ، فعَضَلها[3]، ومنعها الأزواج إذا لم يجد لها كفوًا.

وكان له قريبٌ يسمى (يقظان)، فتزوجها سرًّا على وجهٍ جائزٍ في مَذهبهِم المشهور في زَمنهِم، ثم إنها حملت منه ووضعت طفلاً. فلما خافت أن يَفتَضِحَ أمرُها، وينكشفَ سرُّها، وضعته في تابوتٍ أحكمت زمَّهُ[4] بعد أن أروته من الرَّضاع، وخرجت به في أول الليل في جملةٍ من خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر، وقلبُها يحترقُ صبابةً به، وخوفاً عليه، ثم إنَّها ودَّعته وقالت: «اللهم إنَّك خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئاً مذكوراً، ورَزَقْتَهُ في ظُلمات الأحشاء، وتكفَّلت به حتى تمَّ واستوى. وأنا قد سلَّمتُه إلى لُطفِك، ورَجوتُ له فَضْلَك؛ خوفاً من هذا الملك الغَشُوم الجبار العنيد، فكن له، ولا تسلمه، يا أرحم الراحمين».

ثم قذفت به في اليمِّ[5]، فصادف ذلك جريَ الماء بقوَّة المدّ، فاحْتَمَلَه من لَيلَتهِ إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدِّم ذِكرُها، وكان المدُّ يصل في ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه إلا بعد عام، فأدخَلَهُ الماء بقوَّتِهِ إلى أَجَمةٍ[6] ملتفةِ الشجر، عذبةِ التربة، مستورةٍ عن الرياح والمطر، محجوبةٍ عن الشمس؛ تَزاوَرُ[7] عنها إذا طلعت، وتميلُ إذا غَرَبت.

ثم أخذ الماء في الجزْر، وبقيَ التابوتُ في ذلك المَوْضِع، وعلت الرمالُ بهبوب الرياح، وتراكمت بعد ذلك حتى سَدَّت مَدْخَل الماء إلى تلك الأجمة، فكان المدُّ لا ينتهي إليها، وكانت مسامير التابوت قد فُلِقت، وألواحه قد اضطربت عند رمي الماء إياه في تلك الأجمة.

فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة، فوقع صوته في أذن ظبيةٍ فقدت طَلاها[8]؛ خرج من كِنَاسه[9] فحمله العقاب، فَلمَّا سَمعت الصوتَ ظنَّته ولدها، فَتَتَبَّعت الصوتَ وهي تتخيلُ طِلاها حتى وصلت إلى التابوت، ففحصت عنه بأظلافها[10]، وهو ينوءُ ويئنُّ من داخلِهِ، حتى طار عن التابوتِ لوحٌ من أعلاه، فحَنت الظبية وحنَّت عليه، ورَئِمَت[11] به، وألقَمته حلَمَتَها، وأروته لبناً سائغاً. وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى.

إن الظبية التي تكفلت به وافقت خصباً ومرعى أثيثاً[12]، فكثر لحمُها، ودرَّ لبنُها، حتى قام بغذاء ذلك الطفل أحسنَ قيام، وكانت معه لا تبعدُ عنه إلا لضَرورةِ الرَّعْي، وألِفَ الطفلُ تلك الظبية حتى كان بحيث إذا هي أبطأت عنه اشتدَّ بكاؤه، فطارت إليه.

ولم يكن بتلك الجزيرة شيءٌ من السِّباع العادية، فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية، إلى أن تم له حولان، وتدرج في المشي وأثغر[13]، فكان يتبع تلك الظبية، وكانت هي تَرفُقُ به وتَرْحَمُه، وتَحمِلُه إلى مواضِعَ فيها شجرٌ مثمرٌ؛ فكانت تُطعِمُه ما تَسَاقَطَ من ثَمَرَاتِها الحلوة النضيجة، وما كان منها صلْبَ القِشْرِ كسَرَته له بطواحِنها، ومتى عاد إلى اللبن أروَته، ومتى ظمِئَ إلى الماءِ أوردته، ومتى ضحا[14] ظلَّلته، ومتى خَصِرَ[15]أدفأته، وإذا جنَّ[16] الليلُ صرَفَتْهُ إلى مكانِهِ الأول، وجَلَّلَتْهُ بنفسها وبريشٍ كان هناك؛ مما مُلِئَ به التابوت أولًا في وقت وَضْعِ الطفلِ فيه.

وكان في غدوهما ورواحهما قد ألفهما رَبْرَبٌ[17]؛ يَسْرَحُ ويبيتُ معهما حيثُ مبيتهما. فما زال الطفل مع الظِّباءِ على تلك الحال؛ يحكي نَغْمَتَها بصوتِهِ حتى لا يكاد يفرِّق بينهما، وكذلك كان يحكِي جميعَ مَا يَسْمَعُه من أصوات الطيرِ وأنواع سائرِ الحيوان محاكاةً شديدةً؛ لقوّة انفعاله لما يريده، وأكثرُ ما كانت محاكاتُه لأصوات الظِّباءِ في الاستصراخِ والاستئلافِ والاستدعاء والاستدفاع؛ إذ للحَيواناتِ في هذه الأحوالِ المختلفةِ أصواتٌ مختلفةٌ، فألِفَتْهُ الوحوش وألِفَها، ولم تُنْكِرْهُ ولا أنكرها.

فلمّا ثبتَ في نَفْسِهِ أمثلةُ الأشياء بعد مَغيبِها عن مُشاهَدتِه، حدثَ له نزوعٌ[18] إلى بعضها، وكراهيَةٌ لبعض. وكان في ذلك كُلِّه ينظرُ إلى جميعِ الحيوانات؛ فيراها كاسيَةً بالأوبارِ والأشعار وأنواع الريش، وكان يرى ما لها من العَدْوِ وقوّةَ البَطْش، وما لها من الأسلحة المُعَدَّةِ لمُدافَعَةِ من يُنازعها[19]؛ مثل القرون والأنياب والحوافر والصياصي[20] والمخالب، ثم يَرجِعُ إلى نفسِهِ، فيرى ما بِهِ من العرْي، وعَدَم السِّلاح، وضَعْفِ العَدْوِ، وقِلَّة البَطْشِ، عندما كانت تنازعُه الوحوش أكل الثمرات، وتستبدُّ بها دونَه، وتغلبُه عليها، فلا يستطيع المدافعة عن نفسه، ولا الفرار عن شيء منها.

وكان يرى أترابَه[21] من أولاد الظباء؛ قد نَبتَتْ لها قرونٌ بعد أن لم تَكُن، وصارت قويةً بعدَ ضَعْفِها في العَدْوِ، ولم يرَ لنفسه شيئاً من ذلك كُلِّه؛ فكان يفكِّرُ في ذلك ولا يدري ما سَبَبُهُ، وكان ينظرُ إلى ذوي العاهات والخَلْق الناقص، فلا يجدُ لنفسه شبيهاً فيهم، وكان أيضاً ينظر إلى مَخارِج الفُضولِ من سائر الحيوان، فَيرَاها مَسْتُورَةً؛ أما مخرجُ أغلظِ الفضلتين فبالأذناب، وأما مَخْرَجُ أرقِّهما فبالأوبار وما أشبهها. ولأنها كانت أيضاً أخفى قضباناً منه، فكان ذلك ما يَكرُبُه[22] ويَسُوءه.

فلمّا طالَ همُّهُ في ذلك كلِّهِ، وهو قد قارب سبعةَ أعوام، وَيئِسَ من أن يَكْمُلَ له ما قد أَضرَّ به نَقْصُه - اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئاً جعلَ بعضَه خَلْفَهُ وبَعْضَه قُدَّامَه، وعَمِلَ من الخُوصِ والحَلْفاء شِبْهَ حِزَام على وَسطِه، عَلَّق به تلك الأوراق، فلم يَلْبَثْ إلا يسيراً حتى ذوى ذلك الورقُ وجفَّ وتساقط. فما زال يتخذُ غيرَه ويَخْصِفُ[23] بعضه ببعض طاقاتٍ مضاعفةً، وربما كان ذلك أطولَ لبقائه، إلا أنه على كل حالٍ قصيرُ المُدَّة.

واتَّخَذَ من أغصانِ الشَّجَرِ عِصيًّا، وسوَّى أطرافها، وَعَدَّلَ متْنهَا، وكان يهُشُّ بها على الوحوش المنازعة له؛ فيحمِلُ على الضعيف منها، ويقاومُ القويَّ منها، فَنَبُلَ[24] بذلك قدرُه عندَ نفسِهِ بعضَ نبالةٍ، ورأى أن ليَدِهِ فضلاً كثيراً على أيديها؛ إذ أمكن له بها من سَتْرِ عورَتِه، واتخاذِ العِصِيِّ التي يدافع بها عن حوزته[25]، ما استغنى به عما أراده من الذَّنَبِ والسلاحِ الطَّبيعيِّ.

وفي خلال ذلك ترعرع وأربى على السبع سنين، وطال به العناءُ في تَجْديدِ الأوراقِ التي كان يستترُ بها، فكانت نفسُهُ عند ذلك تُنازِعُهُ إلى اتخاذ ذَنَبٍ من أذناب الوحوش الميتة؛ ليعَلِّقَهُ على نَفْسِهِ، إلا أنه كان يرى أحياء الوحوشِ تتحامى ميِّتَها وتفرُّ عنه؛ فلا يتأتّى له الإقدامُ على ذلك الفعل، إلى أن صادف في بعض الأيام نسراً ميتاً، فَهُدِيَ إلى نَيْلِ أَمله منه، واغْتَنَم الفرصةَ فيه؛ إذ لم يرِ للوحوشِ عنه نفرةً، فأقدمَ عليه، وقطع جناحيه وذنبَه صِحاحاً كما هي، وفَتَح ريشَها وسوَّاها، وسَلَخَ عنه سائِرَ جِلْدِه، وَفَصَلَهُ على قطعتين؛ ربطَ إحداهما على ظَهْره، والأخرى على سُرَّتِه وما تحتها، وعلَّق الذَّنَب من خَلْفِه، وعلّق الجناحين على عَضُديه.

فأكسَبَه ذلك سِتْراً ودفئاً، ومهابةً في نفوس جميع الوحوش؛ حتى كانت لا تنازِعُهُ ولا تعارِضُهُ، فصار لا يدنو إليه شيءٌ منها سوى الظبيةِ التي كانت أرْضَعتْه وربَّته؛ فإنها لَم تفارقْهُ ولا فارقَها، إلى أن أسنَّت وضَعُفَت، فكان يرتادُ بها المراعي الخِصْبة، ويجتني لها الثمرات الحلوة ويُطعِمُها. وما زال الهُزالُ والضعفُ يستولي عليها ويتوالى، إلى أن أدركها الموتُ، فسكنت حركَتُها بالجملة، وتعطَّلت جميعُ أفعالِها.

فلما رآها الصبي على تلك الحالة، جزع جزعاً شديداً، وكادت نفسُه تفيضُ أَسَفاً عليها؛ فكان يناديها بالصوت الذي كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه، ويصيحُ بأشدِّ ما يَقدِرُ عليه، فلا يَرى لها عند ذلك حركةً ولا تغييراً؛ فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة، وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائِها فلا يرى بشيء منها آفةً، فكان يطمعُ أن يعثرَ على مَوْضِعِ الآفة فيُزيلَها عنها، فترجع إلى ما كانت عليه، فلم يتأتَّ له شيءٌ من ذلك ولا استطاعه.

وكان الذي أرشَدَه لهذا الرأي ما كان قد اعتبره[26] في نفسه قبل ذلك؛ لأنهُ كانَ يَرَى أنَّه إذا غَمضَ عينيه أو حَجَبَهما بشيءٍ لا يبصرُ شيئاً حتى يزولَ ذلك العائق، وكذلك كان يرى أَنَّهُ إذا أَدْخَلَ إصبعيه في أذنيه وسدَّهُما لا يسمعُ شيئاً حتى يُزالَ ذلك العارض، وإذا أمسك أنفَهُ بيده لا يشمُّ شيئاً من الروائِح حتى يفتحَ أنفَهُ؛ فاعتقد من أجل ذلك أنَّ جميعَ ما له من الإدراكات والأفعال قد تكونُ لها عوائق تعوقها، فإذا أزيلت تلك العوائق عادت الأفعال.

فَلَمَّا نظرَ إلى جميع أعضائها الظاهرةِ ولم يرَ فيها آفَةً ظاهرة - وكان يرى مع ذلك العَطَلَةَ[27] قد شَمَلَتها، ولم يختص بها عضوٌ دون عضوٍ - وقع في خاطِره أن الآفةَ التي نَزَلَت بها، إنّما هي عضوٌ غائبٌ عن العيان، مُستَكِنٌّ في باطِنِ الجسد، وأن ذلك العُضو لا يغني عنه في فعله شيءٌ من هذه الأعضاء الظاهرة.

فلما جَزَمَ الحكمَ بأنَّ العضو الذي نَزَلَت به الآفةُ إنما هو في صدرها، أجمعَ على البحث عليه والتنقير عنه؛ لعلّه يظفرُ به، ويرى آفتَه فيُزيلها، ثم إنه خافَ أن يكونَ نفسُ فعله هذا أعظمَ من الآفة التي نَزَلَتْ بها أولًا؛ فيكون سعْيه عليها، فحصَلَ له من ذلك اليأسُ من رجوعِها إلى حالِها الأولى إن هو تركَها، وبقي له بعضُ رجاءٍ في رجوعها إلى تلك الحال إن هو وَجَدَ ذلك العضو وأزالَ الآفةَ عنه.

فَعزَمَ على شقِّ صَدْرِها وتفتيشِ ما فيه، فاتخَذَ من كسورِ الأحجارِ الصَّلْدة وشُقوقِ القَصَبِ اليابِسَة أشباهَ السكاكين، وشقَّ بها بين أضلاعِها حتى قطعَ اللحمَ الذي بين الأضلاع، وأفضى إلى الحجاب

المُستبْطِن للأضلاع، فرآه قوياً؛ فقويَ ظنّه بأن مثل ذلك الحجاب لا يكونُ إلا لمِثْلِ ذلك العضو، وطمع بأنه إذا تجاوزه ألفى مطلوبه؛ فحاول شقَّه، فصعُبَ عليه؛ لعدم الآلات، ولأنها لم تكن إلا من الحِجارَةِ والقصبِ، فاستجدَّها[28] ثانية واستحدَّها، وتلطَّفَ في خَرْقِ الحجاب حتى انخرقَ له، فأفضى إلى الرئة، فظنَّ أولاً أنَّها مطلوبُهُ، فما زال يقلِّبُها ويطلبُ موضعَ الآفة بها.

وما زال يفتِّش في وسط الصدر حتى ألفى القلب، وهو مجلَّلٌ بغشاءٍ في غاية القوة، مربوطٌ بعلائقَ في غاية الوثاقة، والرئة مطيفةٌ به من الجهة التي بدأ بالشّقّ منها، فقال في نفسه: إن كان لهذا العضوِ من الجهةِ الأخرى مثلُ ما له من هذه الجهةِ فهو في حقيقةِ الوَسَط، ولا محالة أنه مطلوبي، لاسيما مع ما أرى له من حُسن الوضع، وجمالِ الشّكل، وقلّة التَّشَتُّت، وقوَّةِ اللحم، وأنه محجوبٌ بمثل هذا الحجاب الذي لم أر مثله لشيء من الأعضاء.

فبَحَثَ عن الجانبِ الآخرِ من الصدر، فوجَدَ فيه الحجابَ المُستبطِن للأضلاع، ووجدَ الرئةَ كمثلِ ما وجده من هذه الجهة؛ فَحَكَم بأنَّ ذلكَ العضو هو مطلوبه، فحاول هتك[29] حجابه، وشقَّ شَغافه[30]، فَبِكَدٍّ واستكراهٍ ما، قَدِرَ على ذلك بعد استفراغ مجهوده.

وجرَّدَ القلبَ فرآه مُصْمتاً[31] من كلِّ جهةٍ، فنظر هل يرى فيه آفةً ظاهرةً؟ فلم ير فيه شيئاً! فشدَّ عليه يَده، فتبيّن له أن فيه تجويفاً، فقال: لعلَّ مطلوبي الأقصى إنما هو في داخل هذا العضو، وأنا حتى الآن لم أصل إليه.

فلما رأى أن السَّاكنَ في ذلك البيتِ قد ارتحلَ قَبلَ انهدامِهِ، وترَكَهُ وهو بحاله[32]، تحقَّق أَنَّه أحرى ألَّا يعودَ إليه بعد أن حدثَ فيه من الخرابِ والتخريقِ ما حدث، فصار عنده الجسدُ كلُّه خسيسًا لا قَدْرَ له بالإضافة إلى ذلك الشيء الذي اعتقد في نفسه أنه يسكُنُه مدةً ويرحلُ عنه بعد ذلك، فاقتصر على الفكرة في ذلك الشيء: ما هو؟ وكيف هو؟ وما الذي ربطَهُ بهذا الجسد؟ وإلى أين صار؟ ومن أيّ الأبواب خرج عنه خروجَه من الجسد؟ وما السبب الذي أَزْعَجهُ إن كان خرج كارهاً؟ وما السبب الذي كرَّه إليه الجسد حتى فارقه، إن كان خرج مختاراً؟

وتشتتت فِكْرُه في ذلك كلِّه، وسلا[33] عن ذلك الجسدِ وطَرحَهُ، وعلم أنَّ أمَّهُ التي عَطفَتْ عليه وأرضَعَتْهُ، إنما كانت ذلك الشيءَ المُرتَحِلَ - وعنه كانت تصدُرُ تلك الأفعالُ كلُّها - لا هذا الجسدَ العاطِلَ، وأن هذا الجسد بجُملَته إنما هو كالآلة، وبمنزلة العِصيِّ التي اتخذها هو لقتال الوحوش. فانتقلت علاقَتُهُ عن الجسدِ إلى صاحبِ الجسد ومُحرِّكِهِ، ولم يبق له شوقٌ إلا إليه.

وفي خلال ذلك نَتُن ذلك الجسدُ، وقامت منه روائحُ كريهةٌ، فزادت نفْرتُه عنه، وودَّ ألَّا يراه، ثم إنّه سَنَح[34] لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع أحدُهما الآخر ميْتاً، ثم جَعَلَ الحيُّ يبحثُ في الأرض حتى حفرَ حفرةً فوارى فيها ذلك الميت بالتراب، فقال في نفسه: ما أحسنَ ما صنعَ هذا الغرابُ في مواراةِ جيفةِ صاحبِهِ، وإن كان قد أساءَ في قَتْلِه إياه! وأنا كنتُ أحقَّ بالاهتداءِ إلى هذا الفعلِ بأمي! فحفرَ حفرةً، وألقى فيها جسدَ أمِّه، وحَثا عليها التراب.

وبقي يتفكَّرُ في ذلك الشيءِ المصرِّفِ للجسد، ولا يدري ما هو! غير أنه كان ينظرُ إلى أشخاصِ الظباءِ كلِّها، فيراها على شَكْلِ أمِّهِ وعلى صورَتِها، فكانِ يغلبُ على ظنِّهِ أن كلَّ واحدٍ منها إنما يحرِّكُه ويصرِّفُه شيءٌ، هو مثل الشيء الذي كان يحرِّكُ أمَّهُ ويُصرِّفُها؛ فكان يألفُ الظباءَ، ويحنُّ إليها لمكان ذلك الشبه.

وبقيَ على ذلك برهةً من الزمنِ، يتصفَّحُ أنواعَ الحيوانِ والنباتِ، ويطوفُ بساحلِ تلك الجزيرةِ، ويتطلَّبُ هل يرى أو يجدُ لنفسِه شبيهاً حسبما يرى لكلِّ واحدٍ من أشخاصِ الحيوانِ والنباتِ أشباهاً كثيرةً؟ فلا يجدُ شيئاً من ذلك. وكان يرى البحرَ قد أحدَقَ بالجزيرة من كلِّ جِهَةٍ؛ فيعتقدُ أنهُ ليسَ في الوجودِ أرضٌ سوى جزيرته تلك.

واتفق في بعض الأحيان أن انقدحت نارٌ في أجمة قلخ[35] على سبيل المحاكَّةِ، فلما بصرَ بها رأى منظراً هَالَهُ، وخلْقاً لم يعهَدْهُ قبلُ، فوقف يتعجَّبُ منها مليًّا، وما زال يدنو منها شيئاً فشيئاً، فرأى ما للنار من الضَّوء الثاقبِ، والفعلِ الغالبِ، حتى لا تعلقُ بشيءٍ إلا أتت عليه، وأحالته إلى نفسها، فحمله العَجَبُ بها، وبما ركَّبَ الله تعالى في طِباعِهِ من الجراءة والقوَّة، على أن يَمُدَّ يدَه إليها، وأراد أن يأخُذَ منها شيئاً. فلما باشرها[36] أحرقت يَدَهُ، فلم يستطعِ القبضَ عليها، فاهتدى إلى أن يأخذَ قَبَساً لم تستولِ النارُ على جميعِهِ؛ فأخَذَ بطَرفِهِ السَّليم والنارُ في طَرفِهِ الآخر، فتأتَّى له ذلك، وحَملَهُ إلى موضِعِه الذي كان يأوي إليه؛ وكان قد خلا في جُحْرٍ استحسَنَهُ للسُّكنى قبلَ ذلك.

ثمّ ما زالَ يمد تلكَ النار بالحشيشِ والحطبِ الجَزْل، ويتعهدها ليلاً ونهاراً؛ استحساناً لها وتعجُّباً منها. وكان يزيدُ أنسُه بها ليلاً؛ لأنها كانت تقوم له مقامَ الشمسِ في الضياءِ والدفءِ، فعظُم بها ولُوعُه، واعتقَد أنَّها أفضلُ الأشياءِ التي لديه، وكان دائماً يراها تتحركُ إلى جهة فوق، وتطلبُ العُلُوَّ، فغَلَبَ على ظنِّهِ أنَّها من جملةِ الجواهر السماوية التي كان يشاهدُها.

وكان يختبر قوَّتها في جميعِ الأشياءِ بأنْ يُلقيها فيها، فيَرَاها مستوليةً عليها، إما بسرعةٍ، وإما ببطءٍ؛ بحَسَبِ قوَّةِ استعدادِ الجسمِ الذي كان يُلقيه للاحتراقِ أو ضَعْفِهِ.

وكان من جُملةِ ما ألقى فيها - على سبيل الاختبار لقوَّتها - شيءٌ من أصنافِ الحيوانات البحرية، كان قد ألقاهُ البحرُ إلى ساحِلِه، فلمَّا أنضجَت ذلك الحيوانَ، وسَطَعَ قُتارهُ[37]، تحرَّكت شهوتُه إليه؛ فأكلَ منه شيئاً فاستطابَهُ؛ فاعتاد بذلك أكلَ اللحم، فَصَرَفَ الحيلةَ في صيدِ البرِّ والبحر، حتى مَهَرَ في ذلك. وزادت محبتُه للنار؛ إذ تأتَّى له بها من وجوه الاغتذاء الطيِّب شيءٌ لم يتأتَّ لَهُ قبل ذلك.

وفي خلالِ هذه المدَّةِ المذكورة تفنَّنَ في وجوهِ حيلِهِ، واكتسى بجلودِ الحيواناتِ التي كان يشرِّحُها، واحتذى بها، واتخذ الخيوطَ من الأشعار، ولحا[38] قصب الخطمية[39] والخبازى[40] والقنَّب، وكلّ نباتٍ ذي خيط. وكان أصلُ اهتدائِهِ إلى ذلك: أنَّه أخذَ من الحَلْفاء[41]، وعمِل خطاطيفَ من الشوك القويِّ والقصب المُحددِ على الحجارة.

واهتدى إلى البناء بما رأى من فعل الخطاطيف؛ فاتَّخَذَ مخزناً وبيتاً لفضلةِ غِذَائِهِ، وحصَّنَ عليه ببابٍ من القصبِ المربوطِ بعضُهِ إلى بعضٍ؛ لئلا يصلَ إليهِ شيءٌ من الحيوانات عندَ مغيبه عن تلك الجهةِ

في بعضِ شؤونه.

واستألفَ جوارحَ الطيرِ ليستعينَ بها في الصيد، واتخذَ الدواجنَ لينتفعَ ببيضِها وفراخِها، واتخذَ من صياصي البقر الوحشيةَ شبه الأسنَّة، وركَّبَها في القَصَبِ القويِّ، وفي عِصيِّ الزانِ وغيرِها، واستعانَ في ذلك بالنار وبحروف الحجارةِ، حتى صارت شبهَ الرِّماحِ، واتخذ ترسَهُ من جلودٍ مُضاعفةٍ، كلُّ ذلك لما رأى من عُدْمِهِ السلاحَ الطبيعي.

ولما رأى أن يده تفي له بكلِّ ما فاتَه من ذلك، وكانَ لا يقاوِمُه شيءٌ من الحيوانات على اختلافِ أنواعها، إلا أنها كانت تفرُّ عنه فتُعجزُه هرباً، فكر في وجه الحيلة في ذلك، فلم ير شيئاً أنجع له من أن يتألَّفَ[42] بعضَ الحيوانات الشديدة العدْو، ويُحسِنَ إليها بإعداد الغذاءِ الذي يصلُح لها حتى يتأتّى له الركوبُ عليها، ومطاردةُ سائرِ الأصناف بها. وكان بتلك الجزيرة خيلٌ بريَّةٌ وحُمرٌ وحشيّة، فاتخذ منها ما يصلُح له، وراضها حتى كَمُلَ له بها غرضُه، وعَمِلَ عليها من الشُّرَك والجلود أمثال الشكائم[43] والسروج، فتأتَّى له بذلك ما أمَلَهُ من طَرد الحيوانات التي صعُبت عليه الحيلة في أخذها.

وإنما تفنَّنَ في هذه الأمورِ كلِّها في وقتِ اشتغالِه التشريحَ، وشهوته في وقوفِه على خصائصِ أعضاء الحيوان، وبماذا تختلف، وذلك في المدَّة التي حددنا منتهاها بواحد وعشرين عاماً.

ثم إنه بعدَ ذلك أخذَ في مآخذَ أُخر من النظر، فتصفَّحَ جميعَ الأجسام التي في عالم الكونِ والفسادِ؛ من الحيوانات على اختلاف أنواعها، والنباتِ والمعادن، وأصنافِ الحجَارةِ والترابِ، والماءِ والبخارِ والثلجِ والبردِ، والدخان واللهيب والجمر، فرأى لها أوصافاً كثيرة وأفعالاً مختلفة، وحركاتٍ متفقةً ومتضادةً، وأنعَمَ النظرَ في ذلك والتثبُّت؛ فرأى أنها تتفقُ ببعضِ الصفاتِ وتختلفُ ببعض، وأنها من الجهة التي تتفقُ بها واحدةٌ، ومن الجهة التي تختلف فيها مُتغايرةٌ ومتكثِّرة؛ فكان تارةً ينظرُ خصائصَ الأشياءِ وما ينفرَّدُ به بعضُها عن بعض، فتكثُر عندَه كثرةً تخرُجُ عن الحصرِ، وينتشرُ له الوجودُ انتشاراً لا يُضْبط.

وكانت تتكثَّرُ عندَه أيضاً ذاتُه؛ لأنه كان ينظر إلى اختلاف أعضائِهِ، وأن كلَّ واحدٍ منها منفردٌ بفعلٍ وصفةٍ تخصُّهُ، وكان ينظرُ كلَّ عضوٍ منها، فيرى أنه يحتملُ القسمةَ إلى أجزاءٍ كثيرةٍ جدًّا؛ فيحكُم على ذاتِهِ بالكثرةِ، وكذلك على ذاتِ كلِّ شيءٍ. ثم كان يَرجِعُ إلى نَظَرٍ آخر من طريقٍ ثانٍ؛ فيرى أن أعضاءَهُ، وإن كانت كثيرةً، فهي متصلةٌ كلها بعضُها ببعضٍ، لا انفصالَ بينها بوجهٍ؛ فهي في حُكم الواحِد، وأنَّها لا تختلفُ إلا بحسب اختلافِ أفعالِها، وأنَّ ذلك الاختلافَ إنما هو بسببِ ما يصلُ إليها من قُوَّة الروحِ الحيواني الذي انتهى إليه نظرُه أولاً، وأن ذلك الروح واحدٌ في ذاته، وهو حقيقةُ الذات، وسائِرُ الأعضاء كلِّها كالآلات؛ فكانت تَتحدُ عندَه ذاتُه بهذا الطريق.

ثم كان ينتقل إلى جميع أنواع الحيوان، فيرى كلَّ شخصٍ منها واحداً بهذا النوعِ من النظر، ثم كان ينظرُ إلى نوعٍ منها؛ كالظِّباءِ والخيلِ والحمر وأصنافِ الطير صِنفاً صِنفاً، فكان يرى أشخاصَ كلِّ نوعٍ يشبهُ بعضُه بعضاً في الأعضاءِ الظاهرةِ والباطِنة والإدراكات والحركاتِ والمنازِع، ولا يرى بينها اختلافاً إلا في أشياءَ يسيرة بالإضافة إلى ما اتفقت فيه. وكان يحكُم بأنَّ الروحَ الذي لجميع ذلك النوعِ شيءٌ واحدٌ، وأنه لم يختلف، إلا أنه انقسم على قلوبٍ كثيرةٍ، وأنه لو أمكن أن يجمعَ جميعَ الذي

افترقَ في تلك القلوب منه، ويجعله في وعاءٍ واحدٍ، لكان كله شيئاً واحداً؛ بمنزلةِ ماءٍ واحدٍ، أو شرابٍ واحدٍ، يُفرَّقُ على أوانٍ كثيرةٍ، ثم يجمعُ بعد ذلك. فهو في حالتي تفريقِهِ وجمعه شيءٌ واحدٌ، إنما عرض له التكثُّر بوجهٍ ما، فكان يرى النوعَ كلَّه بهذا النظرِ واحداً، ويجعلُ كثرةَ أشخاصه بمنزلة كثرةِ أعضاء الشخصِ الواحد، التي لم تكن كثيرةً في الحقيقة.

ثم كان يستحضر أنواعَ الحيوان كلها في نفسه ويتأملُها؛ فيراها تتفقُ في أنها تُحِسُّ وتغتذي، وتتحرك بالإرادةِ إلى أيِّ جهةٍ شاءت، وكان قد عَلِمَ أن هذه الأفعال هي أخصُّ أفعالِ الروح الحيواني، وأن سائرَ الأشياءِ التي تختلفُ بها بعد هذا الاتفاق، ليست شديدةَ الاختصاصِ بالروح الحيواني. فظهر له بهذا التأمُّل أن الروحَ الحيواني الذي لجميع جنس الحيوان واحدٌ بالحقيقة، وإن كان فيه اختلافٌ يسيرٌ اختُصَّ به نوعٌ دون نوع؛ بمنزلة ماءٍ واحدٍ مقسومٍ على أوانٍ كثيرةٍ، بعضُه أبردُ من بعضٍ، وهو في أصلِهِ واحدٌ، وكلُّ ما كان في طبقةٍ واحدةٍ من البرودةِ، فهو بمنزلةِ اختصاصِ ذلك الروح الحيواني بنوعٍ واحدٍ، وإن عَرَضَ له التكثُّر بوجهٍ ما؛ فكان يرى جِنْسَ الحيوانِ كلَّه واحداً بهذا النوع من النظر.

ثم كان يرجع إلى أنواعِ النبات على اختلافها، فيرى كلَّ نوعٍ منها تشبهُ أشخاصُه بعضُها بعضًا في الأغصانِ، والورَقِ، والزَّهْرِ، والثمرِ، والأفعالِ؛ فكان يقيسُها بالحيوان، ويعلمُ أنَّ لها شيئاً واحداً اشتركت فيه؛ فهو لها بمنزلةِ الروحِ للحيوان، وأنها بذلك الشيء واحدٌ. وكذلك كان ينظرُ إلى جنسِ النبات كلِّه، فيحكمُ باتحاده بحسب ما يراه من اتفاق فعله في أنه يتغذى وينمو.

ثم كان يجمعُ في نفسِهِ جنس الحيوان وجنسَ النبات؛ فيراهما جميعاً متفقين في الاغتذاء والنمو، إلا أن الحيوانَ يزيدُ على النباتِ بفضلِ الحسِّ والإدراكِ والتحرُّكِ، وربما ظهرَ في النبات شيءٌ شبيهٌ به؛ مثل تحوُّل وجوهِ الزهر إلى جهة الشمس، وتحرُّك عروقه إلى جهة الغذاء، وأشباه ذلك، فظهر له بهذا التأملِ أن النباتَ والحيوانَ شيءٌ واحدٌ؛ بسبب شيءٍ واحدٍ مُشْتَرِكٍ بينهما، هو في أَحَدِهما أتمُّ وأكمل، وفي الآخر قد عاقه عائقٌ ما، وأن ذلك بمنزلة ماءٍ واحدٍ قُسِمَ بقسمين؛ أحدُهما جامدٌ، والآخر سيَّال؛ فيتحد عنده النبات والحيوان.

ثم ينظر إلى الأجسام التي لا تحس ولا تتغذّى ولا تنمو؛ من الحجارة، والتراب، والماء، والهواء، واللهب، فيرى أنها أجسامٌ مقدَّرٌ لها طولٌ وعرضٌ وعمقٌ، وأنها لا تختلفُ، إلا أن بعضَها ذو لونٍ، وبعضَها لا لونَ له، وبعضَها حار، وبعضها بارد، ونحو ذلك من الاختلافات، وكان يرى أن الحارَّ منها يصيرُ بارداً، والباردَ يصيرُ حارًّا، وكان يرى الماء يصيرُ بخاراً والبخار ماءً.

وكذلك نظر إلى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء؛ فرأى أن حقيقةَ وجودِ كلِّ واحدٍ منها مركبةٌ من معنى الجسميَّة، ومن شيءٍ آخر زائدٍ على الجِسميَّة؛ إما واحدٌ، وإما أكثر من واحد؛ فلاحت له صورُ الأجسامِ على اختلافها، وهو أوَّلُ ما لاحَ له من العالمِ الروحاني؛ إذ هي صور لا تُدرك بالحس، وإنما تُدرك بضربٍ ما من النظر العقلي[44].

ولاح له - في جملة ما لاح من ذلك - أن الروحَ الحيوانيَّ الذي مسكنُه القلبُ - وهو الذي تقدم شرحُه أولاً - لا بدّ له أيضًا من معنى زائد على جسميَّتِهِ، يصلُحُ بذلك المعنى لأن يعمل هذه الأعمالَ

الغريبة، التي تختصُّ به من ضروبِ الإحساسات، وفنونِ الإدراكات، وأصنافِ الحركات، وذلك المعنى هو صورتُه وفصلُه الذي انفصل به عن سائرِ الأجسام، وهو الذي يعبِّرُ عنه النُظَّار [45] بالنفس الحيوانية.

وكذلك أيضاً للشيءِ الذي يقوم للنبات مقام الحار الغريزي للحيوان شيءٌ يخصُّه؛ هو صورته، وهو الذي يعبِّرُ عنه النُظَّار بالنفس النباتية، وكذلك لجميعِ أجسام الجمادات - وهي ما عدا الحيوانِ والنبات مما في عالم الكون والفساد - شيءٌ يخصُّها، به يفعلُ كلُّ واحدٍ منها فعله الذي يختص به؛ مثل صنوفِ الحركات وضروبِ الكيفيات المحسوسة عنها، وذلك الشيء هو صورةُ كل واحدٍ منها، وهو الذي يعبِّر النُظَّار عنه بالطبيعة.

فلما وقف بهذا النظر على أن حقيقةَ الروح الحيوانيِّ - الذي كان تشوُّقه إليه أبداً - مركبةٌ من معنى الجسميَّة، ومن معنى آخر زائدٍ على الجسميّة، وأن معنى هذه الجسمية مُشترِكٌ، ولسائرِ الأجسام، والمعنى الآخر المقترن به ينفردُ به هو وحدُه، هان عندَهُ معنى الجسميَّة فاطَّرحه، وتعلَّق فكرُه بالمعنى الثاني، وهو الذي يُعبَّرُ عنه بالنفس، فتشوّق إلى التحقُّقِ به، فالتزم الفكرةَ فيه، وجعلَ مبدأ النظرِ في ذلك تصفُّحَ الأجسام كلِّها؛ لا من جهة ما هي أجسام، بل من جهة ما هي ذوات صورٍ تلزم عنها خواصّ، ينفصل بها بعضُها عن بعضٍ.

فلمّا انتهى نظره إلى هذا الحدّ، وفارق المحسوسَ بعضَ مفارقةٍ، وأشرفَ على تخوم العالم العقلي، استوحش وحنَّ إلى ما ألِفَه من عالم الحسِّ، فتقهقر قليلًا وترك الجسمَ على الإطلاق؛ إذ هو أمرٌ لا يدركُه الحس، ولا يقدِرُ على تناولِهِ، فأخذَ أبسطَ الأجسام المحسوسةِ التي شاهدَها؛ وهي تلك الأربعة التي كان قد وقفَ نظرَه عليها.

ثم إنه تتبَّع الصورة التي كان قد عاينها قبل ذلك صورةً صورة، فرأى أَنها كلَّها حادثةٌ، وأنها لا بدَّ لها من فاعلٍ. ثم إنه نظر إلى ذوات الصور، فلم ير أنها شيء أكثر من استعداد الجسم لأن يصدُرَ عنه ذلك الفعل - مثل الماء؛ فإنه إذا أفرط عليه التسخين، استعدَّ للحركةِ إلى فوق، وصَلُح لها؛ فذلك الاستعداد هو صورتُه؛ إذ ليس هاهنا إلا جسمٌ وأشياء تحَسُّ عنه بعد أن لم تكن؛ فصلوحُ الجسمِ لبعضِ الحركات دون بعضٍ هو استعداده بصورته.

ولاحَ له مثل ذلك في جميع الصور؛ فتبيَّن له أن الأفعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها، وإنما هي لفاعلٍ يفعلُ بها الأفعال المنسوبة إليها، وهذا المعنى الذي لاح له هو قول رسول الله - عليه الصلاة والسلام -: «كنت سمْعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصِرُ به»، وفي محكم التنزيل: {فلم تقتلوهُم ولكن الله قَتَلَهُم، وما رميتَ إذ رميْتَ، ولكِنَّ الله رمى} -الأنفال: 17.

فلمّا لاحَ له من أمرِ هذا الفاعلِ ما لاحَ على الإجمال دونِ تفصيلٍ حدث له شوقٌ حثيثٌ إلى معرفته على التفصيل، ولأنه لم يكن بعدُ فارقَ عالمِ الحسِّ؛ جعلَ يطلبُ هذا الفاعلَ على جهةِ المحسوسات، وهو لا يعلمُ بعدُ هل هو واحدٌ أو كثيرٌ؟ فتصفَّح جَميعَ الأجسامِ التي لديه، وهي التي كانت فكرتُه أبدًا فيها، فرآها كلَّها تتكون تارةً، وتفسُدُ أخرى، وما لم يقف على فساد جُمْلته، وقف على فساد أجزائِهِ؛

مثل الماء والأرض؛ فإنه رأى أجزاءهما تفسدُ بالنار، وكذلك الهواء رآه يفسدُ بشدَّةِ البرد، حتى يتكون منه ثلجٌ، فيسيلُ ماء.

وكذلك سائرُ الأجسامِ التي كانت لديه، ولم ير منها شيئاً بريئاً عن الحدوث والافتقار إلى الفاعلِ المختار، فاطَّرحها كلَّها، وانتقلت فكرته إلى الأجسام السماوية. وانتهى إلى هذا النظر على رأس أربعة أسابيع من منشئه، وذلك ثمانية وعشرون عاماً.

فعلم أن السماءَ وما فيها من الكواكب أجسامٌ؛ لأنها ممتدةٌ في الأقطار الثلاثة: الطول، والعرض، والعمق، لا ينفكُّ شيءٌ منها عن هذه الصفةِ، وكلُّ ما لا ينفك عن هذه الصفة فهو جسمٌ؛ فهي إذن كلُّها أجسام.

فلما رأى أن جميع الموجودات فِعلةٌ، تصفَّحها من بعد ذا تصفحًا على طريق الاعتبار في قدرة فاعلها، والتعجُّبِ من غريب صَنْعته، ولطيفِ حِكْمتِهِ، ودقيقِ عِلْمِهِ، فتبيَّنَ له في أقل الأشياء الموجودة - فضلًا عن أكثرها من آثارِ الحكمة، وبدائعِ الصنْعَةِ، ما قضى منه كل العجب، وتحققَ عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعلٍ مختارٍ، في غايةِ الكمال وفوق الكمال: {لا يعزب عنه مثقالُ ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر} -سبأ:3.

ثم تأمَّلَ في جميع أصناف الحيوان؛ كيف أعطى كلَّ شيءٍ خلقه، ثم هداه لاستعمالِهِ، فلولا أنه هداه لاستعمال تلك الأعضاء التي خُلقت له في وجوه المنافع المقصود بها؛ لما انتفعَ بها الحيوانُ، وكانت كلًّا عليه؛ فعلم بذلك أنه أكرمُ الكرماء، وأرحمُ الرحماء.

ثم إنه مهما نظر شيئاً من الموجودات له حسنٌ، أو بهاءٌ، أو كمالٌ، أو قوةٌ، أو فضيلةٌ من الفضائل - أي فضيلة كانت - تَفَكَّر وَعَلِمَ أنها من فيضِ ذلك الفاعل المُختارِ - جلّ جلالُه - ومن جودِهِ ومن فعلِهِ، فَعلِمَ أن الذي هو في ذاته أعظمُ منها، وأكملُ وأتمُّ، وأحسنُ وأبهى، وأجملُ وأدومُ، وأنَّه لا نسبةَ لهذِهِ إلى تلك. فما زال يتتبع صفات الكمال كلَّها، فيراها له وصادرةً عنه، ويرى أنَّه أحقُّ بها من كلِّ ما يوصف بها دونه. وتَتَبَّع صفات النقص كلَّها فرآه بريئًا منها، ومنزَّهًا عنها، وكيف لا يكون بريئًا منها؛ وليس معنى النقص إلا العدم المحض، أو ما يتعلق بالعدم؟ وكيف يكونُ العدمُ تعلُّقٌ أو تلبسٌ بمن هو الموجودُ المحضُ، الواجبُ الوجود بذاته، المعطي لكل ذي وجودٍ وجوده، فلا وجود إلا هو؛ فهو الوجودُ، وهو الكمالُ، وهو التمامُ، وهو الحسنُ، وهو البهاءُ، وهو القدرةُ، وهو العلم، وهو هو، و{كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه} - القصص: 88.

فانتهت به المعرفةُ إلى هذا الحد، على رأسِ خمسة أسابيع من منشئه؛ وذلك خمسة وثلاثون عاماً، وقد رَسَخَ في قلبِهِ من أمرِ هذا الفاعل، ما شغله عن الفكرة في كل شيءٍ إلا فيه، وذُهِل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها؛ حتى صار بحيثُ لا يقع بَصرُه على شيءٍ من الأشياء، إلا ويرى فيه أثرَ الصَّنْعَة من حينه، فينتقلُ بفكره على الفور إلى الصانع ويترك المصنوع، حتى اشتدَّ شوقُه إليه، وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس، وتعلق بالعالم الأرفع المعقول.

فلما حصل له العلمُ بهذا الموجود الرفيع الثابت الوجود، الذي لا سبب لوجوده، وهو سبب وجود جميع الأشياء؛ أراد أن يعلمَ بأيِّ شيءٍ حصل له هذا العلمُ، وبأيِّ قوَّةٍ أدرك هذا الموجود؛ فتصفَّح حواسه كلها - وهي: السمعُ، والبصرُ، والشمُّ، والذوقُ، واللمسُ - فرأى أنها كلَّها لا تدركُ شيئاً إلا جسماً، أو ما هو في جسم؛ وذلك أن السمع إنما يدركُ المسموعات، وهي ما يحدُث من تموج الهواء عند تصادم الأجسام، والبصرَ إنما يُدركُ الألوان، والشمَّ يدركُ الروائحَ، والذوقَ يدرك الطُّعومَ، واللمسَ يدرك الأمزجةَ والصلابَةَ واللين، والخشونَةَ والملاسة، وكذلك القوة الخيالية لا تدرك شيئاً إلا أن يكونَ له طولٌ وعرضٌ وعمقٌ، وهذه المُدرَكاتُ كلُّها من صفات الأجسام، وليسَ لهذه الحواس إدراك شيءٍ سواها؛ وذلك لأنها قوى شائعةٌ في الأجسام، ومُنقَسِمةٌ بانقسامها؛ فهي لذلك لا تُدرك إلا جسمًا منقسمًا؛ لأن هذه القوةَ إذا كانت شائعةً في شيءٍ منقسم، فلا محالة أنها إذا أدركت شيئاً من الأشياء، فإنه ينقسمُ بانقسامها؛ فإذن كلُّ قوةٍ في جسمٍ فإنها - لا محالة - لا تدرك إلا جسماً أو ما هو جسم.

وقد تبيّن أن هذا الموجود الواجب الوجود بريءٌ من صفات الأجسام من جميع الجهات؛ فإذن لا سبيل إلى إدراكه إلا بشيءٍ ليس بجسم، ولا هو قوةٌ في جسم، ولا تعلُّق له بوجهٍ من الوجوه بالأجسام، ولا هو داخلٌ فيها ولا خارجٌ عنها، ولا متصلٌ بها ولا منفصلٌ عنها. وقد كان تبيَّن له أنه أدركه بذاته، ورَسخت المعرفةُ به عنده، فتبيّن له بذلك أن ذاتَه التي أدركه بها أمرٌ غيرُ جسماني، ولا يجوزُ عليه شيءٌ من صفات الأجسام، وأن كل ما يدركُهُ من ظاهر ذاته من الجسمانية فإنها ليست حقيقة ذاته، وإنما حقيقة ذاته ذلك الشيءُ الذي أدركَ به الموجودَ المطلق الواجب الوجود.

فلمّا عَلِم أن ذاته ليست هذه المتجسِّمة التي يدركُها بحواسِّه، ويحيطُ بها أديمه[46]؛ هان عنده بالجملة جسمُه، وجعل يتفكَّرُ في تلك الذات الشريفة التي أدرك بها الموجودَ الشريفَ الواجبَ الوجود، ونظر في ذاته تلك الشريفة؛ هل يمكنُ أن تبيدَ أو تفسُدَ وتضمحِل، أو هي دائمةُ البقاء؟ فرأى أن الفساد والاضمحلال إنما هو من صفات الأجسام بأن تخلَعَ صورةً وتلبس أخرى، مثل الماء إذا صار هواءً، والهواءِ إذا صار ماءً، والنبات إذا صارَ تراباً أو رماداً، والترابِ إذا صار نباتاً، فهذا هو معنى الفساد. وأما الشيء الذي ليس بجسم، ولا يحتاج في قوامه إلى الجسمِ، وهو منزه بالجملة عن الجسمانية، فلا يُتصوَّرُ فسادهُ البتةَ.

وتبين له أن الشيء الذي به يتوصل إلى إدراكه أمرٌ لا يشبه الأجسام ولا يفسُدُ لفسادِها، فظهَرَ له بذلك أن من كانت لهُ مثل هذه الذات المعدّة لمثل هذا الإدراك، فإنَّهُ إذا اطَّرح البدن بالموت؛ فإما أن يكون قبل ذلك - في مدة تصريفه للبدن - لم يتعرف قطّ بهذا الموجود الواجب الوجود، ولا اتصل به، ولا سمع عنه، فهذا إذا فارق البدن لا يشتاق إلى ذلك الموجود ولا يتألم لفقده.

ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل؛ حتى لا يقعَ منه إعراض، فكان يلازم الفكرة في ذلك الموجود كلَّ ساعة؛ فما هو إلا أن يسنح لبصره محسوسٌ ما من المحسوسات، أو يخرقَ سمعَه صوتُ بعضِ الحيوان، أو يعترضَه خيالٌ من الخيالات، أو ينالَهُ ألمٌ في أحدِ أعضائه، أو يصيبَه الجوعُ أو العطشُ أو البردُ أو الحرُّ، أو يحتاجَ إلى القيام لدفع فضوله، فتختلَّ فكرتُه، ويزولَ عما كان فيه، ويتعذَّرَ عليه الرجوعُ إلى ما كان عليه من حال المشاهدة إلا بعد جهدٍ. وكان يخاف أن

تفجأه منيَّتَه وهو في حال الإعراض، فيفضي إلى الشقاء الدائم، وألم الحجاب، فساءه حاله ذلك، وأعياه الدواء.

فجعل يتصفّح أنواع الحيوانات كلَّها، وينظر أفعالَها وما تسعَى فيه؛ لعله يتفطَّن في بعضها أنها شعرت بهذا الموجود، وجعلت تسعى نحوَهُ، فيتعلَّم منها ما يكون سببَ نجاته؛ فرآها كلَّها إنما تسعى في تحصيلِ غذائها، ومقتضى شهواتها من المطعوم والمشروب والمنكوح، والاستظلال والاستدفاء، وتجدُّ في ذلك ليلها ونهارها إلى حين مماتها وانقضاء مدتها، ولم ير شيئاً منها ينحرفُ عن هذا الرأي، ولا يسعى لغيره في وقت من الأوقات، فبان له بذلك أنها لم تشعرْ بذلك الوجود، ولا اشتاقت إليه، ولا تعرَّفت به بوجهٍ من الوجوه، وأنها كلَّها صائرةٌ إلى العدم، أو إلى حالٍ شبيهٍ بالعدم.

فلما حكم بذلك على الحيوان، علم أن الحُكم له على النبات أولى؛ إذ ليس للنبات من الإدراكات إلا بعض ما للحيوان، وإذا كان الأكمل إدراكاً لم يصل إلى هذه المعرفة، فالأنقصُ إدراكاً أحرى ألَّا يصل، مع أنه رأى أيضاً أن أفعال النبات كلَّها لا تتعدى الغذاء والتوليد.

ثم إنه بعد ذلك نظر إلى الكواكب والأفلاك؛ فرآها كلَّها منتظمة الحركات، جاريةً على نسق، ورآها شفافةً ومضيئةً وبعيدةً عن قبول التغيُّر والفساد، فحدس حدسًا قويًا أن لها ذوات سوى أجسامها، تعرفُ ذلك الموجود الواجب الوجود، وأن تلك الذوات العارفة ليست بأجسام، ولا منطبعة في أجسام مثل ذاته هو العارفة، وكيف لا يكون لها مثل تلك الذوات البريئة عن الجسمانية، ويكونُ لمِثلِهِ هو على ما به من الضَّعْفِ وشدَّةِ الاحتياج إلى الأمور المحسوسةِ، وأنهُ من جملة الأجسام الفاسدة، ومع ما به من النَّقْص، فلم يعقْهُ ذلك عن أنَ تكون ذاتهُ بريئةً عن الأجسام لا تفْسدُ؟ فتبين له بذلك أن الأجسامَ السماوية أولى بذلك.

ولما كان قد اعتبرَ أحوال الحيوان، ولم يرَ فيها ما يظنُّ به أنَّهُ شعرَ بالموجودِ الواجبِ الوجود، وقد كان علم من ذاته أنها قد شعرت به؛ قطع بذلك على أنه هو الحيوان المُعتدِلِ الروح، الشبيه بالأجسام السماوية، وتبين له أنه نوعٌ مباينٌ لسائر أنواع الحيوان، وأنه إنما خلق لغايةٍ أخرى، وأُعِدَّ لأمرٍ عظيم، لم يعدَّ له شيءٌ من أنواع الحيوان، وكفى به شرفاً أن يكون أخسُّ جزأيْه - وهو الجسمانيّ - أشبهَ الأشياء بالجواهر السماوية الخارجة عن عالم الكون والفساد، المنزَّهَة عن حوادثِ النقصِ والاستحالة والتغيُّر.

وأما أشرفُ جزأيْه فهو الشيءُ الذي به عَرف الموجودَ الواجب الوجود، وهذا الشيءُ العارفُ أمرٌ رباني إلهي لا يستحيلُ ولا يلحقُه الفسادُ، ولا يُوصَفُ بشيءٍ مما تُوصَفُ به الأجسام، ولا يُدرَكُ بشيءٍ من الحواس، ولا يُتخيل، ولا يُتوصل إلى معرفته بآلة سواه، بل يُتوصل إليه به؛ فهو العارفُ والمعروف والمعرفة، وهو العالم والمعلوم والعلم، لا يتباين في شيء من ذلك؛ إذ التباين والانفصال من صفات الأجسام ولواحقها، ولا جسم هنالك ولا صفة جسم ولا لاحق بجسم.

فلما تبيّن له الوجهُ الذي اختُصَّ به من بين سائرِ أصناف الحيوان بمشابهة الأجسام السماوية؛ رأى أن الواجب عليه أن يتقبَّلها، ويُحاكي أفعالها، ويَتشبه بها جَهْدَه. وكذلك رأى أنه بجزئه الأشرف الذي به عرف الموجودَ الواجبَ الوجود، فيه شبه ما منه من حيث هو منزَّه عن صفاتِ الأجسام، كما أن

الواجبَ الوجود منزّهٍ عنها، فرأى أيضاً أنه يجب عليه أن يسعى في تحصيل صفاته لنفسه من أي وجهٍ أمكن، وأن يتخلَّق بأخلاقه، ويقتدي بأفعاله، وَيجِدَّ في تنفيذ إرادته، ويُسْلِم الأمرَ له، ويرضى بجميعِ حُكْمه رضى من قلبه ظاهراً وباطناً، بحيث يُسَرُّ به، وإن كان مؤلماً لجسمه، وضارًّا به، ومتلِفاً لبدنه بالجملة.

وكذلك أيضاً رأى أن فيه شبهًا من سائرِ أنواع الحيوان بجزئه الخسيس الذي هو عالمُ الكون والفساد؛ وهو البدنُ المظلمُ الكثيفُ، الذي يطالَبُهُ بأنواع المحسوسات من المطعوم والمشروب والمنكوح، ورأى أيضًا أن ذلك البدن لم يُخلَق له عبثاً، ولا قُرِنَ به لأمرٍ باطلٍ، وأنه يجب عليه أن يتفقَّده ويُصلِح من شأنه، وهذا التفقد لا يكون منه إلا بفعلٍ يشبه أفعالَ سائرِ الحيوان.

فاتجهت عنده الأعمالُ التي يجبُ عليه أن يفعلَها نحو ثلاثة أغراض: إما عملٌ يتشبَّهُ بالحيوان غير الناطق، وإما عملٌ يتشبه بالأجسام السماويَّة، وإما عملٌ يتشبه به بالموجود الواجب الوجود.

فالتشبُّهُ الأول:

يجب عليه من حيثُ له البدنُ المظلم ذو الأعضاء المنقسمة، والقوى المختلفة، والمنازع المتفننة.

والتشبُّهُ الثاني:

يجب عليه من حيث له الروح الحيواني الذي مسكنه القلب، وهو مبدأٌ لسائر البدن، ولما فيه من القوى.

والتشبُّهُ الثالث:

يجب عليه من حيث هو هو؛ أي: من حيث هو الذات التي بها عرف ذلك الموجود الواجب الوجود.

وكان أولاً قد وقف على أن سعادتَه وفوزَه من الشقاء، إنما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود؛ حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عينٍ، ثم إنه نظر في الوجه الذي يتأتى له به هذا الدوام، فأظهر له النظر أنه يجب عليه الاعتمال في هذه الأقسام الثلاثة من التشبهات:

> أما التشبّه الأول فلا يحصل له شيء من هذه المشاهدة، بل هو صارفٌ عنها وعائقٌ دونها؛ إذ هو تصرف في الأمور المحسوسة، والأمور المحسوسة كلُّها حُجُبٌ مُعتَرِضة دون تلك المشاهدة، وإنما احتيج إلى هذا التشبه لاستدامة هذا الروح الحيواني الذي يحصلُ به التشبه الثاني بالأجسام السماوية، فالضرورة تدعو إليه من هذا الطريق، ولو كان لا يخلو من تلك المضرَّة.

> وأما التشبه الثاني فيحصل له به حظٌّ عظيمٌ من المشاهدة على الدوام، لكنَّها مشاهدةٌ يخالطُها شوبٌ؛ إذ من يشاهد ذلك النحو من المشاهدة على الدوام، فهو مع تلك المشاهدة يعقِلُ ذاتَه ويلتَفِتُ إليه، حسبما يتبين بعد هذا.

> وأما التشبُّه الثالث فتحصُل به المشاهدةَ الصِّرْفَة، والاستغراق المحض الذي لا التفات فيه بوجهٍ من الوجوه إلا إلى الموجود الواجب الوجود، والذي يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه ذات نفسه وفنِيت وتلاشت، وكذلك سائر الذوات - كثيرةً كانت أو قليلة - إلا ذات الواحد الحق الواجب الوجود، جلَّ وتعالى وعزَّ.

فلما تبين له أن مطلوبه الأقصى هو هذا التشبه الثالث، وأنه لا يحصلُ له إلا بعد التمرُّن والاعتمال مدة طويلة في التشبه الثاني، وأن هذه المدة لا تدوم له إلا بالتشبه الأول، وعلم أن التشبه الأول، وإن كان ضرورياً، فإنه عائقٌ بذاته، فألزم نفسَه ألَّا يجعل لها حظًّا من هذا التشبه الأول إلا بقدر الضرورة؛ وهي الكفاية التي لا بقاء للروح الحيواني بأقلّ منها، ووجد ما تدعو إليه الضرورة في بقاء هذا الروح أمرين؛ أحدُهما: ما يمدُّه من داخل، ويخلِفُ عليه بدلَ ما يتحللُ منه؛ وهو الغذاء. والآخر: ما يقيه من خارج، ويدفع عنه وجوهَ الأذى؛ من البردِ والحرِّ والمطرِ ولفح الشمس والحيوانات المؤذية ونحو ذلك.

فكان سعيه على نفسه من حيث لا يشعر، فرأى أن الحزم له أن يفرِضَ لنفسِهِ فيها حدودًا لا يتعدَّاها، ومقاديرَ لا يتجاوزُها، وبان له أن الفرضَ يجبُ أن يكونَ في جنسِ ما يتغذَّى به، وأيَّ شيءٍ يكون، وفي مقدارِهِ، وفي المدة التي تكون بين العودات إليه.

فنظر أولاً في أجناس ما به يتغذى؛ فرآها ثلاثةَ أضرب:

إما نبات لم يكمل بعدُ نضجُه، ولم ينته إلى غاية تمامه؛ وهي أصناف البقول الرطبة التي يمكنُ الاغتذاءُ بها.

وإما ثمرات النبات الذي قد تمَّ وتناهى، وأخرج بذره ليتكون منه آخر من نوعه حفظاً له؛ وهي أصنافُ الفواكه رطبُها ويابسُها.

وإما حيوان مِن الحيوانات التي يتغذّى بها؛ إما البريّة وإما البحرية.

وكان قد صحّ عندَه أن هذه الأجناس كلَّها من فعل ذلك الموجود الواجب الوجود، الذي تبين له أن سعادته في القرب منه، وطلب التشبه به، ولا محالة أن الاغتذاء بها مما يقطعُها عن كمالها، ويحول بينها وبين الغاية القصوى المقصودة بها. فكان ذلك اعتراض على فعل الفاعل، وهذا الاعتراض مضادٌّ لما يطلبُه من القرب منه والتشبه به؛ فرأى أن الصواب كان له لو أمكن أن يمتنع عن الغذاء جملةً واحدةً، لكنه لمّا يمكنُه ذلك؛ لأنه إن امتنع عنه آل ذلك إلى فسادِ جسمِهِ، فيكون ذلك اعتراضاً على فاعله أشد من الأول؛ إذ هو أشرف من تلك الأشياء الأخر التي يكون فسادُها سببًا لبقائِهِ، فاستسهلَ أيسرَ الضررين، وتسامحَ في أخفِّ الاعتراضين، ورأى أن يأخذَ من هذه الأجناس إذا عُدمت أيها تيسَّر له، بالقدر الذي يتبيَّنُ له بعد هذا.

فأما إن كانت كلُّها موجودةً فينبغي له حينئذ أن يتثبتَ، ويتخيرَ منها ما لم يكن في أخذه كبير اعتراضٍ على فعل الفاعل؛ وذلك مثل الفواكه التي قد تناهت في الطيب، وصلُح ما فيها من البزر

لتوليدِ المثل، على شرط التحفظ بذلك البزر، بألا يأكله ولا يُفسدَه، ولا يُلقيَه في موضعٍ لا يصلحُ للنبات؛ مثل الصفاة والسبخة ونحوهما.

فإن تعذَّر عليه وجودُ مثل هذه الثمرات ذات الطعم الغاذي؛ كالتفاح والكمثرى والإجاص ونحوها، كان له عند ذلك أن يأكلَ إما من الثمرات التي لا يغذو منها إلا نفسُ البزر؛ كالجوز والقسطل، وإما من البقول التي لم تصل بعد حدَّ كمالها، والشرط عليه في هذين أن يقصد أكثرها وجودًا وأقواها توليدًا، وألَّا يستأصلَ أصولها، ولا يفني بزرها. فإن عدم هذه فله أن يأخذَ من الحيوان أو من بيضه، والشرط عليه في الحيوان أن يأخذَ من أكثره وجودًا، ولا يستأصل منه نوعًا بأسرِه.

هذا ما رآه في جنس ما يتغذى به. وأما المقدار فرأى أن يكون بحسب ما يسد خلَّة الجوع، ولا يزيد عليها، وأما الزمان الذي بين كلِّ عودتيْن، فرأى أنّه إذا أخذَ حاجتَه من الغذاء أن يقيم عليه، ولا يتعرّض لسواه حتى يلحَقَه ضعفٌ يقطعُ به بعض الأعمال التي تجب عليه في التشبه الثاني، وهي التي يأتي ذكرها بعد هذا.

فأما ما تدعو إليه الضرورة في بقاءِ الروح الحيواني مما يقيه من خارج، فكان الخطبُ فيه عليه يسيراً؛ إذ كان مكتسياً بالجلود، وقد كان له مسكنٌ يقيه مما يرد عليه من خارجٍ، فاكتفى بذلك، ولم ير الاشتغال به، والتزم في غذائه القوانين التي رسمها لنفسه؛ وهي التي تقدَّم شرحها.

ثم أخذَ العملَ الثاني؛ وهو التشبه بالأجسام السماوية، والاقتداء بها، والتقبُّلُ لصفاتها، وتتبع أوصافها، فانحصرت عنده في ثلاثة أضرب:

> أما الضربُ الأول: فكان تشبَّه بها فيه أن ألزم نفسَه ألَّا يرى ذا حاجةٍ أو عاهةٍ أو مضرةٍ، أو ذا عائقٍ من الحيوان أو النبات، وهو يقدِرُ على إزالتها عنه، إلا ويزيلُها.

فمتى وقعَ بصرُه على نباتٍ قد حجبه عن الشمس حاجِبٌ، أو تعلَّق به نبات آخر يؤذيه، أو عَطِشُ عطشاً يكاد يفسِدُه، أزال عنه ذلك الحاجب إن كان مما يُزال، وفصلَ بينه وبين ذلك المؤذي بفاصلٍ لا يضرُّ المؤذي، وتعهده بالسقي ما أمكنه.

ومتى وقع بصرُه على حيوان قد أرهقَه سبُعٌ، أو نشِب به ناشبٌ، أو تعلَّق به شوكٌ، أو سقط في عينيه أو في أذنيه شيءٌ يؤذيه، أو مسَّهُ ظمأٌ أو جوعٌ، تكفل بإزالة ذلك كلِّه عنه جهده، وأطعمه وسقاه.

ومتى وقعَ بصرُه على ماءٍ يسيلُ إلى سقي نبات أو حيوان، وقد عاقه عن ممرِّه ذلك عائقٌ؛ من حجرٍ سقطَ فيه، أو جرفٍ انهارَ عليه، أزال ذلك كلَّه عنه.

ومازال يمعن في هذا النوع من ضروب التشبه حتى بلغ فيه الغاية.

وأما الضرب الثاني: فكان تشبهه بها فيه أن ألزم نفسه دوامَ الطهارةِ، وإزالة الدنس والرجس عن جسمه، والاغتسال بالماء في أكثر الأوقات، وتنظيف ما كان من أظفاره وأسنانه ومغابن[47] بدنه،

وتطييبها بما أمكنه من طيب النبات، وصنوف الدواهن العطرة، وتعهد لباسَه بالتنظيف والتطييب؛ حتى كان يتلألأ حسناً وجمالاً، ونظافة وطيباً.

والتزم مع ذلك ضروب الحركة على الاستدارة؛ فتارةً كان يطوفُ بالجزيرةِ، ويدورُ على ساحلها، ويسيحُ[48] بأكنافها، وتارة كان يطوف ببيته أو ببعض الكدى[49] أدواراً معدودة؛ إما مشيًا، وإما هرولةً، وتارةً يدور على نفسه حتى يُغشى عليه.

وأما الضرب الثالث: فكان تشبه بها فيه أنْ كان يلازمُ الفكرةَ في ذلك الموجود الواجبِ الوجود، ثم يقطعُ علائق المحسوسات، ويُغمضُ عينيه، ويسدُّ أذنيه، ويُضربُ جَهْدَه عن تتبع الخيال، ويروم بمبلغ طاقته ألَّا يفكرَ في شيءٍ سواه، ولا يشركَ به أحداً، ويستعين على ذلك بالاستدارة على نفسه والاستحثاث فيها؛ فكان إذا اشتد في الاستدارة غابتِ عنه جميعُ المحسوسات، وضعف الخيالُ وسائر القوى التي تحتاج إلى الآلاتِ الجسمانية، وقوي فعلُ ذاته التي هي بريئةٌ من الجسم؛ فكانت في بعض الأوقات فكرتُه قد تخلُص عن الشَّوبِ[50]، ويشاهد بها الموجود الواجب الوجود، ثم تكر عليه القوى الجسمانيّة فتفسدُ عليه حالَه، وتردُّهُ إلى أسفل السافلين، فيعودُ من ذي قبل، فإن لحقَهُ ضعفٌ يقطعُ به عن غَرَضه تناولَ بعض الأغذية عن الشرائط المذكورةِ، ثم انتقل إلى شأنِهِ من التشبه بالأجسام السماوية بالأضرب الثلاثة المذكورة.

ودأب على ذلك مدة وهو يجاهد قواه الجسمانية وتجاهده، وينازعُها وتنازعه في الأوقات التي يكون له عليها الظهور، وتتخلص فكرته عن الشَّوْب، يلوح له شيءٌ من أحوال أهل التشبه الثالث.

ثم جعل يطلب التشبه الثالث، ويسعى في تحصيله؛ فينظر في صفات الموجود الواجب الوجود. وقد كان تبين له أثناء نظره العلمي ـ قبل الشروع في العمل ـ أنها على ضربين: إما صفة ثبوتٍ؛ كالعلم والقدرة والحكمة، وإما صفةُ سلبٍ؛ كتنزهه عن الجسمانية، وعن صفات الأجسام ولواحقها، وما يتعلقُ بها، ولو على بعد.

وما زال يطلبُ الفناءَ عن نفسه، والإخلاصَ في مشاهدةِ الحقِّ، حتى تأتَّى له ذلك، وغابت عن ذِكره وفِكره السماواتُ والأرضُ وما بينهما، وجميعُ الصور الروحانية والقوى الجسمانية، وجميعُ القوى المفارَقة للمواد، والتي هي الذوات العارفة بالموجود الحق، وغابت ذاتُه في جملة تلك الذوات، وتلاشى الكلُّ واضمحلَّ، وصارَ هباءً منثورًا، ولم يبق إلا الواحدُ الحق الموجودُ الثابتُ الوجود، وهو يقول بقوله الذي ليس معنى زائدًا على ذاته: {لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار!} (غافر: 16).

ففهم كَلامَه، وسمِعَ نِداءَه، ولم يمنعه عن فهمِه كونُه لا يعرفُ الكلام ولا يتكلَّم، واستغرق في حالته هذه، وشاهد ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بشر.

فأقول: إنّه لما فنيَ عن ذاته وعن جميع الذوات، ولم ير في الوجود إلا الواحدَ الحيَّ القيوم، وشاهدَ ما شاهد، ثم عاد إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق من حاله تلك التي هي شبيهةٌ بالسُّكْر؛ خَطَر ببالِهِ أنه لا ذات له يغايرُ بها الحق تعالى، وأن حقيقَة ذاته هي ذاتُ الحق، وأن الشيءَ الذي كان يظنُّ أولًا أنه ذاته المغايرة لذات الحق، ليس شيئًا في الحقيقة، بل ليس ثَمّ شيءٌ إلا ذات الحق، وأن ذلك بمنزلةِ

نورِ الشمس الذي يقعُ على الأجسام الكثيفة، فتراه يظهر فيها؛ فإنه وإن نسب إلى الجسم الذي ظهر فيه، فليس هو في الحقيقة شيئًا سوى نور الشمس، وإن زال ذلك الجسمُ زال نورُه، وبقي نورُ الشمس بحاله؛ لم ينقص عند حضور ذلك الجسم، ولم يزد عند مغيبه.

وأما تمامُ خَبرِهِ فسأتلوه عليك إن شاء الله تعالى: وهو أنه لما عاد إلى العالمِ المحسوس، وذلك بعد جولانه حيثُ جال، سئم تكاليف الحياة الدنيا، واشتدّ شوقُه إلى الحياة القصوى، فجعل يطلُبُ العودَ إلى ذلك المقام بالنحو الذي طلبه أولًا، حتى وصل إليه بأيسَرَ من السَّعي الذي وصل به أولًا، ودامَ فيه ثانيًا مُدة أطول من الأولى. ثم عاد إلى عَالم الحس، ثم تكلّف الوصولَ إلى مقامِهِ بعد ذلك، فكان أيسرَ عليه من الأولى والثانية، وكان دوامُه أطولَ، وما زال الوصولُ إلى ذلك المقام الكريم يزيدُ عليه سهولةً، والدوام يزيدُ فيه طولًا مدة بعد مدة، حتى صار يصِلُ إليه متى شاء، ولا ينفصِلُ عنه إلا متى شاء، فكان يلازمُ مقامَه ذلك، ولا ينثني عنه إلا لضرورة بدنه التي كان قد قلَّلها، حتى كان لا يوجد أقل منها.

وهو في ذلك كلِّه يتمنى أن يريحَهُ الله - عزَّ وجل - من كل بدنِهِ الذي يدعوه إلى مفارقة مقامِهِ ذلك، فيتخلصَ إلى لذَّتِهِ تخلصًا دائمًا، ويبرأ عما يَجده من الألم عند الإعراض عن مقامِهِ ذلك إلى ضرورة البدن. وبقيَ على حالته تلك حتى أناف على سبعة أسابيعَ من منشئِهِ؛ وذلك خمسون عامًا، وحينئذ اتفقت له صحبةُ (أسال)، وكان من قصته معه ما يأتي ذكرُه بعد هذا، إن شاءَ الله تعالى.

ذكروا أن جزيرةً قريبةً من الجزيرةِ التي وُلدَ بها حيُّ بن يقظان - على أحد القولين المختلفين في صِفة مبدَئِهِ - انتقلت إليها ملَّةٌ من المِلَلِ الصحيحةِ المأخوذةِ على بعض الأنبياء المتقدمين، صلواتُ الله عليهم، وكانت مِلَّةً محاكية لجميع الموجودات الحقيقية بالأمثال المضروبة التي تُعطي خيالات تلك الأشياء، وتُثبت رسومها في النفوس، حسبما جرت به العادة في مُخاطبةِ الجمهور، فما زالت تلك المِلَّة تنتشر بتلك الجزيرة وتقوى وتظهر، حتى قام بها ملكُها، وحملَ الناسَ على التزامِها.

وكان قد نشأ بتلك الجزيرة فتيان من أهل الفضل والرغبة في الخير؛ يُسمى أحدهما أسالًا، والآخر سلامان، فتلقيا تلك الملَّة وقبلاها أحسنَ قبول، وأخذا على أنفسهما بالتزام جميع شرائِعها، والمواظبةِ على جميعِ أعمالِها، واصطحبا على ذلك. وكانا يتفقَّهان في بعض الأوقاتِ فيما وردَ من ألفاظ تلك الشريعةِ في صِفَة الله - عزَّ وجل - وملائِكَتِهِ، وصفات الميعادِ والثوابِ والعقاب؛ فأما أسال فكان أشدَّ غوصًا على الباطن، وأكثر عثورًا على المعاني الروحانية، وأطمعَ في التأويل. وأما سلامان صاحبُه فكان أكثرَ احتفاظًا بالظاهر، وأشدَّ بُعدًا عن التأويل، وأوقفَ عن التصرُّف والتأمل، وكلاهما مُجدٌّ في الأعمال الظاهرة، ومُحاسَبَةِ النفسِ، ومُجاهدة الهوى.

وكان في تلك الشريعة أقوالٌ تحمِلُ على العزلة والانفراد، وتدلُّ على أن الفوز والنجاةَ فيهما، وأقوالٌ أخر تحمِلُ على المعاشرةِ وملازَمةِ الجماعة؛ فتعلّق أسال بطلب العزلة، ورجَّحَ القولَ فيها؛ لِما كانَ في طِبَاعِهِ من دوامِ الفِكرَةِ، ومُلازَمَةِ العبْرَة، والغوص على المعاني، وأكثر ما كان يتأتى له أملُه من ذلك بالانفراد. وتعلَّق سلامان بملازمة الجماعة، ورجَّح القولَ فيها؛ لما كان في طِباعه من الجبنِ عن الفكرة والتصرُّف، فكانت ملازَمتُه الجماعة عندهُ مما يدرأ الوسواسَ، ويزيلُ الظنونَ المعترضةَ، ويُعيذ من هَمَزات الشياطينِ. وكان اختلافُهما في هذا الرأي سببَ افتراقهما.

وكان أسال قد سمعَ عن الجزيرةِ التي ذكر أن حيَّ بن يقظان تكوّن بها، وعرَفَ ما بها من الخصْب والمرافِقِ والهواء المعتدل، وأن الانفراد بها يتأتَّى لمُلتَمِسه، فأجمَعَ على أن يرْتَحِلَ إليها، ويعتزلَ الناس بها بقيةَ عمره، فجمعَ ما كان له من مال، واكترى ببعضِهِ مركبًا تحمِلُهُ إلى تلك الجزيرةِ، وفرَّق باقيه على المساكين، وودَّع صاحبَهُ سلامان، وركب متَن البحر، فحمله الملاحون إلى تلك الجزيرة، ووضعوه بساحلها، وانفصلوا عنها.

فبقي أسال بتلك الجزيرة يعبدُ الله ـ عزَّ وجل ـ ويعظِّمُه ويقدِّسُه، ويفكِّر في أسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ فلا ينقطعُ خاطرهُ، ولا تتكدَّر فكرتُه، وإذا احتاج إلى الغذاء تناولَ من ثمراتِ تلك الجزيرة وصيدها ما يسُدُّ بها جَوعتَه. وأقام على تلك الحال مدةً وهو في أتم غِبْطَة، وأعظم أنسٍ بمناجاةِ ربه. وكان كلَّ يوم يشاهدُ من ألطافه، ومزايا تحفه، وتيسيره عليه في مَطلبه وغِذائه؛ ما يُثبِّت يقينَهُ، ويُقرُّ عينه.

وكان في تلك المدةِ حي بن يقظان شديدَ الاستغراق في مقاماته الكريمة؛ فكان لا يبرحُ عن مغارته إلا مرةً في الأسبوع لتناولِ ما سَنَحَ من الغذاء؛ فلذلك لم يعثُر عليه أسال لأولِ وهلةٍ، بل كان يتطوَّف بأكنافِ تلك الجزيرة، ويسيحُ في أرجائها، فلا يرى إنسيًّا ولا يشاهِدُ أثرًا، فيزيدُ بذلك أُنسُه، وتنبسِطُ نفسُه؛ لما كان قد عَزَمَ عليه من التناهي في طلب العزلةِ والانفراد.

إلى أن اتفق في بعضِ تلك الأوقات أن خرجَ حي بن يقظان لالتماس غِذائه، وأسال قد ألمَّ بتلك الجهة، فوقع بصرُ كلِّ واحدٍ منهما على الآخر؛ فأما أسال فلم يشك أنه من العِباد المنقطعين، وصلَ إلى تلك الجزيرة لطلب العزلة عن الناس كما وصلَ هو إليها، فخشي إن هو تعرَّض له وتعرف به أن يكونَ ذلك سبباً لفساد حاله، وعائقاً بينه وبين أملِه.. وأما حيُّ بن يقظان فلم يدر ما هو؛ لأنه لم يرَهُ على صورةِ شيءٍ من الحيوانات التي كان قد عاينها قبل ذلك، وكانَ عليه مدرعةٌ سوداءُ من شعرٍ وصوفٍ، فظنَّ أنها لباسٌ طبيعيٌّ، فوقف يتعجَّبُ منه مليًّا، وولى أسال هاربًا منه خيفة أن يشغله عن حالِهِ، فاقتفى حي بن يقظان أثرَه؛ لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الأشياء، فلما رآه يشتدُّ في الهرب، خَنَس[51] عنه وتوارى له، حتى ظنَّ أسال أنَّه قد انصرفَ عنه وتباعدَ من تلك الجهة.

فشرَع أسال في الصلاةِ والقراءةِ، والدعاءِ والبكاءِ، والتضرعِ والتواجد، حتى شغله ذلك عن كلِّ شيء، فجعلَ حيُّ بن يقظان يتقرَّبُ منه قليلًا قليلًا، وأسال لا يشعرُ به، حتى دنا منه بحيث يسمعُ قراءته وتسبيحَه، ويشاهدُ خضوعَه وبكاءَه، فسمع صوتًا حسنًا وحروفًا منظَّمةً، لم يعهد مثلها من شيءٍ من أصناف الحيوان، ونظر إلى أشكاله وتخطيطِه فرآهُ على صورته، وتبيَّن له أن المِدرَعة[52] التي عليه ليست جلدًا طبيعيًّا، وإنما هي لباسٌ متخذٌ مثل لباسه هو، ولمّا رأى حسنَ خشوعه وتضرّعه وبكائه لم يشكّ في أنه من الذوات العارفة بالحق؛ فتشوَّق إليه وأراد أن يرى ما عندَه، وما الذي أوجب بكاءَه وتضرعَه، فزاد في الدنو منه حتى أحسّ به أسال؛ فاشتدَّ في العَدْو، واشتد حيُّ بن يقظان في أثرِهِ حتى التحق به ـ لما كان أعطاه الله من القوَّة والبَسْطَةِ في العلم والجسم ـ فالتزمَه، وقبض عليه، ولم يمَكِّنْه من البراح.

فلما نظر إليه أسال وهو مكتسٍ بجلود الحيوانات ذوات الأوبار، وشعرُه قد طال حتى جلّل[53] كثيراً منه، ورأى ما عندَهُ من سُرعَةِ العدو وقوَّة البطش، فَرِقَ[54] منه فَرَقًا شديدًا، وجعل يستعطفه، ويرغبُ إليه بكلام لا يفهمُه حيُّ بن يقظانٍ، ولا يدري ما هو، غير أنه كان يميز فيه شمائل[55] الجزع؛ فكان يؤنسُه بأصواتٍ كان قد تعلَّمها من بعض الحيوانات، ويجرُّ يدَه على رأسِهِ، ويمسحُ أعطَافَه[56]، ويتملَّقُ إليه، ويُظهر البِشرَ والفرَحَ به، حتى سكن جأشُ أسال، وعلم أنه لا يريدُ به سوءاً.

وكان أسال قديماً - لمحبَّتِهِ في علم التأويل - قد تعلَّم أكثرَ الألسُنِ، ومهر فيها، فجعلَ يكلِّم حيّ بن يقظان، ويسألهُ عن شأنه بكل لسانٍ يعلمُه، ويعالِجُ إفهامَهُ فلا يستطيع، وحي بن يقظان في ذلك كلِّه يتعجَّبُ مما يسمع، ولا يدري ما هو، غير أنه يُظهِرُ له البشرَ والقبولَ، فاستغرَب كل واحدٍ منهما أمرَ صاحبِهِ.

وكان عند أسال بقيةٌ من زاد كان قد استصحبه من الجزيرة المعمورة، فقرَّبَه إلى حي بن يقظان، فلم يدرِ ما هو؛ لأنه لم يكن شاهدَه من قبل ذلك، فأكل منه أسال، وأشار إليه ليأكلَ، ففكرَ حيُّ بن يقظان فيما كان ألزمَ نفسَه من الشروط في تناولِ الغذاء، ولم يدر أصلَ ذلك الشيء الذي قُدِّمَ له ما هو، وهل يجوز له تناوُله أم لا؟ فامتنع عن الأكل. ولم يزل أسال يرغبُ إليه ويستعطفه، وقد كان أولِعَ به حي بن يقظان، فخشي إن دام على امتناعه أن يُوحِشَه، فأقدَمَ على ذلك الزاد، وأكلَ مِنْهُ.

فلما ذاقه واستطابه بدا له سوءُ ما صنع من نقض عهودِه في شرط الغذاء، ونَدِمَ على فعلِهِ، وأراد الانفصال عن أسال والإقبال على شأنه من طَلب الرجوع إلى مقامِهِ الكريم، فلم تتأتَّ له المشاهدةُ بسرعةٍ، فرأى أن يُقيم مع أسال في عالم الحس حتى يقفَ على حقيقةِ شأنه، وينصرف بعد ذلك إلى مقامه دون أن يشغله شاغل، فالتزم صحبة أسال.

ولما رأى أسال أيضاً أنه لا يتكلّم، أمِنَ من غلوائه على دينه، ورجا أن يعلِّمه الكلامَ والعلمَ والدين؛ فيكون له بذلك أعظمُ أجرٍ وزلفى[57] عند الله، فشرع أسال في تعليمه الكلام أولًا بأن كان يُشيرُ له إلى أعيان الموجودات، وينطق بأسمائها، ويكرِّرُ ذلك عليه، ويحمله على النُطقِ، فينطقُ بها مقترنًا بالإشارة، حتى علَّمه الأسماءَ كلَّها، ودرَّجه قليلًا قليلًا حتى تكلّم في أقربِ مُدةٍ.

فجعل أسال يسألهُ عن شأنه، ومن أين صار إلى تلك الجزيرة؟ فأعلمَه حيُّ بن يقظان أنه لا يدري لنفسه ابتداءً، ولا أبًا ولا أمًّا أكثر من الظبية التي ربَّته، ووصفَ له شأنَهُ كلَّه، وكيف ترقَّى بالمعرفة، حتى انتهى إلى درجة الوصول.

فلما سمع أسال منه وصْفَ تلك الحقائقِ، والذوات المُفارقة لعالم الحسِّ، العارفة بذات الحق عزَّ وجل، وَوصْفَه ذاتِ الحق - تعالى وجلّ - بأوصافه الحُسنى، ووصف له ما أمكَنه وصفه مما شاهده عند الوصول من لذَّات الواصلين، وآلام المحجوبين؛ لم يشك أسال في أن جميع الأشياء التي وردت في شريعتِهِ، مِنْ أمر الله عزَّ وجل، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنته، وناره؛ هي أمثلةُ هذه التي شاهدها حيّ بن يقظان؛ فانفتح بصرُ قلبه، وانقدحت نارُ خاطره، وتطابق عنده

المعقول والمنقول، وقَرُبت عليه طرُق التأويل، ولم يبق عليه مُشكلَ في الشرع إلا تبيَّن له، ولا مُغلقَ إلا انفتح، ولا غامضٌ إلا اتضح، وصار من أولي الألباب.

وعند ذلك نظر إلى حيّ بن يقظان بعين التعظيم والتوقير، وتحقق عنده أنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فالتزم خدمَتَه، والاقتداء به، والأخذ بإشارته فيما تعارض عنده من الأعمال الشرعية التي كان قد تعلمها في مِلَّتِهِ.

وجعل حيُّ بن يقظان يستفصحُه[58] عن أمرهِ وشأنِهِ، فجعلَ أسال يصفُ له شأنَ جزيرته وما فيها من العالم، وكيف كانت سِيَرُهم قبلَ وصول المِلَّة إليهم، وكيف هي الآن بعد وصولِها إليهم، ووصفَ له جميعَ ما وردَ في الشريعةِ من وصف العالم الإلهي، والجنةِ والنار، والبعثِ والنشور، والحشر والحِساب، والميزان والصراط، فَفهِمَ حيُّ بن يقظان ذلك كلَّه، ولم يرَ فيه شيئًا على خلاف ما شاهده في مقامه الكريم، فعلم أن الذي وصف ذلك وجاء به مُحقٌّ في وصفه، صادقٌ في قوله، رسولٌ من عند ربه، فآمن به وصدَّقه، وشهِدَ برسالته.

ثم جعلَ يسأله عما جاء به من الفرائض، ووضعه من العبادات، فوصف له الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، وما أشبهها من الأعمال الظاهرة، فتلقى ذلك، والتزمه، وأخذ نفسَه بأدائِهِ امتثالًا للأمر الذي صَح عنده صدقُ قائله، إلا أنه بقي في نفسه أمران كان يتعجَّبُ منهما، ولا يدري وجه الحكمة فيهما:

> أحدُهما: لِمَ ضَرَب هذا الرسولُ الأمثالَ للناس في أكثر ما وصفه من أمر العالم الإلهي، وأضرب عن المكاشفة، حتى وقع الناسُ في أمرٍ عظيمٍ من التجسيم، واعتقاد أشياء في ذات الحق هو منزَّهٌ عنها، وبريءٌ منها؟ وكذلك في أمر الثّواب والعقاب.

> والأمر الآخر: لِمَ اقتصرَ على هذه الفرائض ووظائف العبادات، وأباحَ اقتناء الأموال والتوسُّعَ في المأكل، حتى يفرغَ الناسُ للاشتغال بالباطل، والإعراضِ عن الحق؟

وكان رأيهُ هو ألَّا يتناول أحدٌ شيئاً إلا ما يُقيم به الرَّمق. وأما الأموال فلم يكن لها عنده معنى، وكان يرى ما في الشرع من الأحكام في أمر الأموال، كالزكاة وتشعُّبها، والبيوع والربا، والحدود والعقوبات، فكان يستغربُ ذلك كله ويراه تطويلًا، ويقول: إن الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه البواطل، وأقبلوا على الحق، واستغنوا عن هذا كلِّه، ولم يكن لأحدٍ اختصاصٌ بمالٍ يسأل عن زكاته، أو تُقطَعُ الأيدي على سرقته، أو تَذهبُ النفوس على أخذه مجاهرة.

وكان الذي أوقعه في ذلك ظنّه أن الناس كلَّهم ذوو فِطَرٍ فائقةٍ، وأذهانٍ ثاقبةٍ، ونفوسٍ عازمةٍ، ولم يكن يدري ما هم عليه من البلادةِ والنقصِ، وسوء الرأي، وضعف العزم، وأنهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلًا.

فلما اشتد إشفاقُه على الناس، وطَمِعَ أن تكون نجاتُهم على يديه، حدثت له نيَّة في الوصولِ إليهم، وإيضاح الحقِّ لديهم، وتبيينه لهم، ففاوض في ذلك صاحبَه أسال، وسأله: هل هناك حيلة في

الوصول إليهم؟ فأعلمَه أسالٍ بما هم عليه من نقصِ الفطرةِ، والإعراضِ عن أمر الله، فلم يتأت له فهمُ ذلك، وبقي في نفسه تعلّقٌ بما كان قد أمَّلَهَ.

وطمِعَ أسال أيضاً أن يهدي الله على يديه طائفةً من معارفه المريدين، الذين كانوا أقربَ إلى التخلُّص من سواهم، فساعده على رأيه، ورأيا أن يلتزما ساحلَ البحر، ولا يفارقاه ليلًا ولا نهارًا؛ لعل الله أن يسنِي[59] لهما عبور البحر، فالتزما ذلك، وابتهلا إلى الله تعالى أن يهيئ لهما من أمرهما رشدًا.

فكان من أمر الله - عز وجل - أن سفينةً في البحر ضلَّت مسلكَها، ودفعتها الرياحُ وتلاطمُ الأمواج إلى ساحلها، فلما قرُبت من البرِّ رأى أهلُها الرجلين على الشاطئ، فدنوا منها، فكلَّمهم أسال، وسألهم أن يحملوهما معهم، فأجابوهُما إلى ذلك، وأدخلوهما السفينةَ، فأرسل الله إليهم ريحًا رخاءً حملت السفينة في أقربِ مدةٍ إلى الجزيرة التي أمَلاها، فنزلا بها، ودخلا مدينتها، واجتمع أصحابُ أسال به، فعرَّفهم شأن حيّ بن يقظان، فاشتملوا عليه اشتمالًا شديدًا، وأكبروا أمره، واجتمعوا إليه، وأعظموه، وبجَّلوه، وأعلمه أسال أن تلك الطائفة هم أقربُ إلى الفهم والذكاء من جميع الناس، وأنه إن عجز عن تعليمهم فهو عن تعليم الجمهورِ أعجز.

وكان رأسُ تلك الجزيرة وكبيرُها سلامان، وهو صاحب أسالٍ الذي كان يرى ملازمةَ الجماعة، ويقول بتحريم العزلةِ، فشرع حيّ بن يقظان في تعليمهم، وبثّ أسرار الحكمة إليهم. فما هو إلا أن ترقَّى عن الظاهر قليلًا، وأخذ في وصف ما سبق إلى فهمهم خلافُه، فجعلوا ينقبضون منه، وتشمئزُّ نفوسُهم مما يأتي به، ويتسخَّطونه[60] في قلوبهم، وإن أظهروا له الرضا في وجهه إكراماً لغربتِهِ فيهم، ومراعاةً لحق صاحبِهِم أسال.

وما زال حيّ بن يقظان يستلطفهُم ليلًا ونهارًا، ويبيّن لهم الحقَّ سرًّا وجهارًا، فلا يزيدهم ذلك إلا نُبوًّا[61] ونفِارًا، مع أنهم كانوا محبين للخير، راغبين في الحق، إلا أنهم لنقصِ فطرتهِم، كانوا لا يطلبون الحقَّ من طريقه، ولا يأخذونه بجهةِ تحقيقهِ، ولا يلتمسونه من بابه، بل كانوا لا يريدون معرفتَه من طريق أربابه. فيئِسَ من إصلاحهم، وانقطع رجاؤه من صلاحهم؛ لقلَّة قبولهِم.

وتصفَّح طبقات الناس بعد ذلك؛ فرأى كلَّ حزبٍ بما لديهم فرحون، قد اتخذوا إلههم هواهم، ومعبودَهم شهواتهم، وتهالكوا في جمع حطام الدنيا، ألهاهم التكاثر، حتى زاروا المقابر، لا تنجع[62] فيهم الموعظة، ولا تعمل فيهم الكلمةُ الحسنة، ولا يزدادون بالجدل إلا إصراراً، وأما الحكمة فلا سبيل لهم إليها، ولا حظَّ لهم منها، قد غَمَرتْهم الجهالةُ، وران[63] على قلوبهم ما كانوا يكسبون، ختم الله على قلوبِهم وعلى سمعِهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم.

فلمّا رأى سُرادِقَ[64] العذاب قد أحاط بهم، وظلمات الحجبِ قد تغشّتهم، والكل منهم - إلا اليسير - لا يتمسَّكون من ملّتهِم إلا بالدنيا، وقد نبذوا أعمالها - على خفَّتِها وسهولتِها - وراءَ ظهورهم، واشتروا بها ثمنًا قليلاً، وألهاهم عن ذكر الله تعالى التجارةُ والبيعُ، ولم يخافوا يوماً تتقلبُ فيه القلوبُ والأبصار؛ بانَ له وتحقَّقَ على القطع أن مخاطبَتَهم بطريقِ المكاشفةِ لا تمكن، وأن تكليفَهم من العملِ فوق هذا القدرِ لا يتفق، وأنَّ حظَّ أكثرِ الجمهورِ من الانتفاع بالشريعة إنما هو في حياتهم الدنيا؛

ليستقِيمَ له معاشَه، ولا يتعدَّى عليه سواه فيما اختصَّ هو به، وأنه لا يفوز منهم بالسعادة الأخروية إلا الشّاذُّ النادرُ؛ وهو من أراد حَرْثَ الآخرة، وسعى لها سعياً وهو مؤمن، (وأما من طغى وآثَرَ الحياةَ الدنيا فإن الجحيم هي المأوى).

وأيُّ تعبٍ أعظمُ، وشقوةٍ أطمّ، ممن إذا تصفَّحْتَ أعمالَه من وقت انتباهه من نومه إلى حين رجوعه إلى الكرى، لا تجد منه شيئاً إلا وهو يلتمسُ به تحصيلَ غايةٍ من هذه الأمور المحسوسةِ الخسيسة؟ إما مال يجمعُه، أو لذة ينالها، أو شهوة يقضيها، أو غيظ يتشفى به، أو جاه يحرزُه، أو عملٍ من أعمالِ الشرع يتزيَّنُ به أو يدافعُ عن رَقَبَتِهِ، وهي كلُّها ظلمات بعضُها فوق بعض في بحر لُجِّي، - وإنْ منْكم إلا واردُها، كان على ربِّك حتماً مقضيًّا-.

فلما فهِمَ أحوالَ الناس، وأن أكثرَهم بمنزلةِ الحيوان غير الناطق، علم أن الحكمةَ كلَّها والهداية والتوفيقَ فيما نطقت به الرُّسلُ، ووردت به الشريعةُ، لا يُمكِنُ غيرُ ذلك، فلكلِّ عملٍ رجالٌ، وكلٌّ ميسرٌ لما خُلِق له، {سُنَّةَ الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً} (الفتح: 23).

فانصرف إلى سلامان وأصحابه، فاعتذرَ عما تكلَّم به معهم، وتبرأَ إليهم منه، وأعلَمهم أنه قد رأى مثل رأيهم، واهتدى بمثلِ هديهم، وأوصاهم بملازمةِ ما هم عليه من التزام حدودِ الشرعِ والأعمالِ الظاهرة، وَقلة الخوضِ فيما لا يعنيهم، والإيمان بالمتشابهات والتسليم لها، والإعراض عن البِدَعِ والأهواء، والاقتداء بالسلفِ الصالح، والترك لمحدثاتِ الأمور، وأمرَهُم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من إهمال الشريعة، والإقبالَ على الدنيا، وحذَّرَهم عنه غايةَ التحذير.

وعلِمَ هو وصاحبُه أسال أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاةَ لها إلا بهذا الطريق، وأنها إن رفعت عنه إلى يفاعِ[65] الاستبصار اختلَّ ما هي عليه، ولم يمكنها أن تلحقَ بدرجة السعداءِ، وتذبذبت وانتكست، وساءت عاقبتُها، وإن هي دامت على ما هي عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالأمن، وكانت من أصحاب اليمين، (والسابقون السابقون أولئك المقربون).

فودَّعاهم، وانفصلا عنهم، وتلطَّفا في العود إلى جزيرتهما، حتى يسَّرَ الله - عَزَّ وجل - عليهما العبورَ إليها، وطلب حي بن يقظان مقامَهُ الكريمَ بالنحو الذي طَلَبَهُ أولًا حتى عاد إليه، واقتدى به أسال حتى قرب منه أو كاد، وعبدا الله بتلك الجزيرة حتى أتاهُما اليقين.



1. جزيرة الواقواق: جزيرة ذُكرت في كتب التراث العربي، لكن ليس هناك دليل على كونها خيالية أو حقيقية، يحدد أغلب الكتب موقعها في بحر الصين أو بحر الهند. ↑

2. الأكناف: مفردها كنف، وهو ناحية الشيء. ↑

3. منعها غصْباً من الزواج. ↑

4. زمّه: شدّه. ↑

5. اليم: البحر. ↑

6. الأجمة: مَنْبت الشجر، أو الشجر الكثيف الملتف. ↑

7. تزاور: تميل، وتنحرف. ↑

8. طلاها: ولدها. ↑

9. كناسه: بيته. ↑

10. أظلافها: مفردها ظِلف؛ وهو ظفر كل ما اجترَّ. ↑

11. رئمت به: أحبته ولزمته وحنت عليه. ↑

12. الأثيث: النبات الكثير الملتف. ↑

13. أثغر: برزت أسنانه. ↑

14. ضحا: تعرض لأشعة الشمس وحرارتها. ↑

15. خَصِرَ: برد. ↑

16. جنَّ: أظلم. ↑

17. الربرب: القطيع من بقر الوحش أو الظباء. ↑

18. نزوع: حنينٌ واشتياق. ↑

19. ينازِعُها: يُخاصمها. ↑

20. الصياصي: قرون الظباء. ↑

21. أترابه: أقرانه. ↑

22. يكربه: يحزنُه. ↑

23. يخصفُ: يُلزق بعضَهُ على بعض. ↑

24. نَبُلَ: ارتفع. ↑

25. حوزته: ناحيته. ↑

26. اعتبره: وجده. ↑

27. العطلة: توقف الأعضاء عن أداء وظائفها. ↑

28. استجدَّها: قطعها. ↑

29. هتك: خرق الستر. ↑

30. شغاف: غشاء القلب. ↑

31. مصمت: لا تجويف فيه. ↑

32. قصد بالساكن الروح، والبيت: الجسد الذي كانت تسكنه الروح. ↑

33. سلا: نسي. ↑

34. سنح: عرض. ↑

35. القلخ: القصب الأجوف. ↑

36. باشرها: لمسها. ↑

37. القتار: رائحة الشواء. ↑

38. لحا: قشر. ↑

39. الخطمية: تكتب أيضاً (الختمية)؛ وهي نوع من النبات يُغسل به. ↑

40. الخبازى: نبتة عريضة الورق، لها ثمرةٌ مستديرةٌ. ↑

41. الحلفاء: نبات أطرافه محددة؛ كأنها أطراف سعف النخل. ↑

42. يتألّف: يستأنس. ↑

43. الشكائم: مفردها شكيمة؛ وهي الحديدةُ في اللجام المعترضة في فم الفرس. ↑

44. النظر العقلي: التأمل والتفكير. ↑

45. النُظَّار: الفلاسفة. ↑

46. أديمه: جلده. ↑

47. مغابن: مفردها مغبن، وهي الأرفاغ والآباط. ↑

48. يسيح: يجري على ظهر الأرض. ↑

49. الكُدى: مفردها كُدية: الأرض المرتفعة، وقيل: إنها شيء صُلب من الحجارة والطين. ↑

50. الشوب: الخلط. ↑

51. خنس: اختبأ وتوارى. ↑

52. المدرعة: نوعٌ من الثياب التي تلبس، وتكون من الصوف. ↑

53. جلّل: غطى. ↑

54. فَرِقَ: جَزِعَ. ↑

55. شمائل: صفات. ↑

56. أعطاف: جوانب. ↑

57. زلفى: قُربى. ↑

58. يستفصحه: يسأله. ↑

59. يسني: يسمح. ↑

60. يتسخطونه: يكرهونه. ↑

61. نبوًّا: ابتعاداً وجفوة. ↑

62. تنجع: تثمر أو تفيد. ↑

63. ران: غلب عليه وغطاه. ↑

64. السرادق: كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب. ↑

65. اليفاع: هو المشرف من الأرض والجبل، وقيل: هو المرتفع من الأرض. ↑

Table of Contents